الفصل الرابع

إحياء الأوستمنستريوم

فى بداية خمسينيات القرن العشرين كانت ميونيخ مدينة طالتها يد الدمار جراء الحرب الكونية الثانية. وعلى الرغم من كون المدينة بعيدة عن منصات إطلاق القنابل فى بريطانيا ما جنبها أقصى أشكال التدمير، إلا أنها قد قصفت بلا هوادة ... وكان الخراب ماثلا للعيان: فميدان "الأوديون" المهيب قد أمطر بالقنابل، أما القصور الملكية البافارية فدمرت محتوياتها تدميرا، ناهيك عن الكنائس والمسارح التى أضحت أطلالا وأثرا بعد عين. أما من نجا من جحيم القصف ورعوده، فكان يحيا فى هذا المخيم أو ذاك.

obeikandl.com

ولقد كانت الخسائر فادحة، إذ قتل ما يربو على الستة آلاف، وجرح نحو خمسة عشر ألفا جراء غارات جوية متواترة. هذا، وقد أمطرت المدينة بثلاثة ملايين قذيفة نارية أو يزيد ... قذائف دمرت نصف بنايات المدينة، وأتت على ميونيخ القديمة إلا قليلا. وحين انقشع غبار المعارك في نهاية الحرب، كان قرابة نصف تعداد المدينة ... ذلك التعداد البالغ ٩٠٠٠٠٠ نسمة قبل اشتعال فتيل الحرب - قد هجرها وارتحل عنها، فيما أضحى ٣٠٠٠٠٠ آخرون بلا مأوى. ولسنوات، قدرت المساكن وإيجاراتها بأعلى من السعر المعتاد ... فتشاركت ثلاث أو أربع بل وخمس عائلات وحدة سكنية واحدة، فكانت لافتات على أبواب أمثال تلكم الوحدات ترشد الزائر ... فمن يبغى عائلة "شميت"، فليقرع الجرس مرة واحدة، ومن يبغى عائلة "براون"، فليقرعه اثنتين، أما من يبغى عائلة "مولر" فثلاث، ... وهلم جرا.

بيد أن إعادة الإعمار كان شغل المدينة الشاغل وهاجسها المخيم الذى سيطر

obeikandl.com

obeikandi.com

عليها. ففى الصباح، كان النسوة يعمدن إلى رفع الأنقاض والحجارة من البنايات التى دمرت، فيما شرع آخرون يستخدمون أزاميلهم فى تهيئة الحجارة المختلفة لإعادة البناء بها. أما أطقم البنائين فقد قاموا بتثبيت المصابيح بأسلاك لتضىء لهم الأنقاض وحطام البنايات فى ليل ميونيخ المظلم. وكانت الظلال المنعكسة فى الظلام لحركة عاملى البناء تبدو كما لو أنها أشباح تركض فى سعى دءوب وإرادة لا تكل بين جدران محطمة ... فهذا يزيح حطاما وأنقاضا، وذاك يجلب حجارة جديدة ... وهكذا. وفى مواقع أخرى، كانت البنايات قد سويت بالأرض فأضحى ثمة رقعة أرض خالية هنا، وأخرى هناك – تدعو المهندس والبنّاء للتشييد عليها. أما الأنقاض فكانت الملمح السائد والقاسم المشترك ... أنقاض أحاطت بالمدينة سرادقاتها فبدت كهياكل مشيدة. وكانت ميونيخ – حتى فى سنى الخمسينيات تلك – ترعى "يوم إعادة البناء" ... يوم تلاه يوم تلاه آخر، يمنح الموظف فيه إجازة من عمله للمشاركة

فى رفع حطام الحرب ومخلفاتها، لتدور الكرة فى يوم تال ... وهكذا دواليك. ففى يوم واحد، أزاح سبعة آلاف رجل خمسة عشر ألف متر مكعب من الأنقاض، مدعومين فى ذلك بالجيش الأمريكى الذى أمدهم بـ ٢٦٤ عربة كبيرة للتفريغ وأربعة آلاف لتر من الوقود. أما الجائزة ... والتى نالها كل فرد عند نهاية اليوم، فكانت قطعتين من النقانق، ورغيف خبز، ولترا من الجعة.

لقد تعافت ميونيخ بأسرع مما تعافى غيرها من مدن ألمانية. ففى أعقاب انتهاء الحرب مباشرة، وتحديدا فى عام ١٩٤٦، كان المايسترو الهنغارى الجليل، السير "غيورغ شولتى" يقود أوركسترا "بافاريا" السيمفونى. هذا، وقد كانت برلين، وإلى أن اندلعت الحرب، العاصمة الصناعية والعلمية والتجارية للبلاد، إلا أن "البيزنس" قد هجر المدينة بعد أن أدى تقسيم ألمانيا إلى جعل برلين جزيرة معزولة فى وسط ألمانيا الشرقية وبحرها الشيوعى المتلاطم. هذا، وقد نقلت كيانات هندسية وصناعية عملاقة كشركة "زيمنز" Siemens أنشطتها إلى ميونيخ، وكذا فعلت بيوتات أموال وشركات تأمين، كشركة Allianz. وحين تنامت وتيرة إعادة البناء، وضعت الشركات المحلية أقدامها على الطريق ثانية. وفى عام ١٩٥١، احتفلت ميونيخ بقيام أحد مصانع السيارات بها بتصدير "مركبة" إلى الهند – فى ملمح مبكر إلى الصعود الاقتصادى المذهل لألمانيا الغربية إلى الحد الذى استعارت معه اللغة الإنكليزية مصطلحا ألمانيا يشير إلى ذلك الصعود، ألا وهو Wirtschaftswunder – أى المعجزة الاقتصادية.

لقد شهد عام ١٩٤٩ إنشاء ألمانيا الغربية وعاصمتها "بون" ... تلك العاصمة التى قال عنها مبدع الروايات الجاسوسية "جون لوكاريه": "إنها لا تعدو أن تكون مدينة ألمانية صغيرة". أما ميونيخ، وبفضل حجمها وموقعها، فكانت العاصمة "غير الرسمية" للبلاد. فالمدينة تبعد ١٢٠ ميلا فقط عن "الستار الحديدى" المار بقلب

أوروبا ... ذلك الستار الذى مثل حاجزا سياسيا وأيديولوجيا متخيلا فصل ما بين الاتحاد السوفييتى وغرب أوروبا فى الفترة (١٩٤٥- ١٩٩٠). أما القنصلية الأمريكية فى ميونيخ، فقد تم الزعم أنها حلت ثانية كأكبر هيكل تمثيلى دبلوماسى فى العالم، إذ لم يكن يسبقها - آنذاك - سوى نقاط التجسس والمراقبة الصينية فى "هونغ كونغ". وعلى امتداد قرابة عقدين من الزمان أعقبا الحرب الكونية الثانية، كانت ميونيخ مدينة مواجهة، أو بالأحرى جبهة مواجهة، فى أحد أبرز الصراعات الأيديولوجية على مدار التاريخ.

هذا، وقد نزح مئات الآلاف من لاجئى أوروبا الشرقية صوب المدينة فى أعقاب الحرب ... كان غالبيتهم من ذوى الإثنية الألمانية ممن تم تهجيرهم وإقصاؤهم من أراض استقطعت بواسطة بولندا أو الاتحاد السوفييتى ... إلا أن المدينة كانت، أيضا، نقطة جذب لأناس شتى مثلوا طوائف إثنية عديدة، وآخرين انتظمتهم أهداف وقضايا مشتركة دافعوا عنها وما يزالون. لقد كانت رغبة الكثير من هؤلاء وهؤلاء أن يمضوا أقل وقت بالمدينة ليرتحلوا بعده إلى بلدان أوفر استقرارا وأكثر رخاء. إلا أن كثيرين أخر لم يبرحوها. لقد ضمت ميونيخ أعدادا كبيرة من جماعات التجأت إليها أشبه بحشود ظلت، على الدوام، تتشكل وتندمج وتتشظى وتتعادى. كذا، فقد انتشر المجرمون فى المدينة، وتوالدت الخطط الكبيرة ... تلك التى شهدتها حانات ميونيخ ومقاهيها ... خطط استهدفت استعادة المهاجرين لأوطانهم الأم. أما "البروباغندا" السوفييتية فقد كانت تمقت المدينة واصفة إياها بأنها "مركز الدمار".

لذا، فقد تضافرت جميع تلك العوامل لجعل ميونيخ المقر المثالى لـ "راديو الحرية"، والذى أنشئ فى بدايات عام ١٩٥١ على يد نفر من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية المهمومين اجتمعوا معا للتباحث حول ما يمكن اتخاذه حيال المشكلة الكبرى - آنذاك - الشيوعية. إذ كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى

قد وقع كلاهما فى مأزق حربى. وكانت رغبة الولايات المتحدة إيجاد وسيلة لتقويض أركان الشيوعية من الداخل. وبما أن الولايات المتحدة كانت "مركز الإعلام" على امتداد المعمورة بأسرها، وإذا ما تضافرت جهود ثلة من رجال الإعلام، أفلا يمكنهم توظيف التقنيات الجديدة وأحدث استراتيجيات الإعلان لنشر رسالة "حرية" عابرة للستار الحديدى؟ إنه بالإمكان إحراز النصر فى الحرب دون إسقاط قنبلة واحدة. لقد عمد هؤلاء الأمريكيون المجتمعون إلى تأسيس منظمة غير حكومية أطلقوا عليها اسم "اللجنة الأمريكية لتحرير شعوب روسيا" ... تلك اللجنة التى كان يترأسها "يوجين ليونز" – المحرر الأسبق بالـ Reader's Digest، وعدد من صحافيين مبرزين. ولقد عمدت اللجنة – التى تأسست فى الثامن عشر من كانون الثانى/ يناير ١٩٥١ فى ولاية "ديلاوير" الأمريكية – إلى إنشاء "راديو الحرية". لقد كان الهدف، وفقا لما قاله المؤسسون أنفسهم، "إتاحة محطة إذاعية لعناصر ديمقراطية من مهاجرى الاتحاد السوفييتى يمكنهم من خلالها التحدث إلى بنى جلدتهم فى الوطن الأم".

هذا، وقد اتخذ "راديو الحرية" من مطار "أوبرفيزنفلد" الواقع على أطراف مدينة ميونيخ مقرا له. ويحتل "راديو الحرية" مبنى مستطيلا رماديا كان، نفسه، معلما ذا سمعة سيئة ... إذ هبط فيه رئيساً وزراء كل من فرنسا وإنكلترا فيه للقاء هتلر حين قدما لحضور المؤتمر الذى شهد تقسيم تشيكوسلوفاكيا، ما جعل ميونيخ صنوا للإرادة الدبلوماسية الرخوة[٢٨]. وفى أثناء الحرب، دُمر المبنى بيد أنه قد أعيد تصميمه على عجل ليكون مقرا للعاملين بالراديو ... الذين ستتضخم أعدادهم لاحقا إلى ما يربو على الألف، ما بين كاتب ومنتج وتقنى ومحاسب وخبير. وحين يجىء الشتاء ... تعصف الريح بنوافذ المبنى، ويسمع هزيم الريح عبر الجدران المتصدعة. أما الأنقاض، فقد روكمت فى ركن من أركان ساحة المطار، فى حين

كان بمقدور الطيارين الألمان استخدام الجزء المتبقى من الممر.

وهنا يستدعى "جيمس كريتشلو"، أحد العاملين السابقين براديو الحرية، ذكريات عن الموقع فيقول: "أحيانا، كنت أنظر من خلال نافذة مكتبى بأحد أركان المبنى لأرى طائرة تتجه مباشرة نحوى، يقودها طيار محبط من سلاح الطيران الألمانى ينحرف فى توقيت مناسب إذ كاد لو تمهل للحظة أو اثنتين ليرتطم بالمبنى".

إن معظم أولئك المغتربين، شأنهم فى ذلك شأن كريتشلو، قد أسكنوا فندق "ريجينا بالاست" أو "القصر الملكى" - الذى كان لا يزال، آنذاك، مهدمة بعض أجزائه. وبداخل الفندق، وفى نهاية كل ردهة، كان ثمة باب محكم الإيصاد - وكان فتح باب أو آخر من تلك الأبواب ليعنى الوقوع فى الحال، وعلى أم الرأس، فى حفرة قد أحدثتها هذه القنبلة أو تلك. أما واجهة الفندق والمطلة على الشارع، فكان يمكن للمارة الراجلين أن يروا حوض استحمام وهو ما يزال معلقا من الطابق الرابع - لا يمنع سقوطه سوى "مواسير" المياه المثبتة بالجدار. إن العديد من الأمريكيين ممن عملوا فى "راديو الحرية" كانوا قد شاركوا فى الحرب الكونية الثانية، فيما تابع آخرون أخبارها من "المنزل" إذ كانوا ما يزالون، آنذاك، فى طور المراهقة. وكانت ميونيخ، وفقا لهم، مدينة غاصة بذكريات عن تلك الحقبة المظلمة. فكما يقول "كريتشلو" مستدعيا بعضا من ذكرى: "كنا، فى بعض الأحايين، نتناول طعامنا لدى نادى الضباط الأمريكيين فى بيت الفن الألمانى ... وهو بناية مهيبة ذات أعمدة حولها هتلر معقلا للفن الألمانى "غير الرمزى" المُعبِّر عن النقاء الآرى[٢٩]. وعلى مقربة من ذلكم المعقل كان ثمة بيت كان هتلر ذاته قد أقام به. أما أرقى مطاعم المدينة، فكان مطعم "أوستيريا إيطاليانا" فى شارع "شيلينغ" ... ذلك المطعم الأثير لدى "الفوهر" حيث تتندر النادلات هناك بروايات عن زياراته للمطعم".

كان العديد من العاملين الأمريكيين براديو الحرية حديثى السن ومثاليين كجيمس كريتشلو ... الذى كان تقنيا للرادار أثناء الحرب الكونية الثانية، كذا فقد كان يعمل لدى شركة "جنرال اليكتريك" فى الخمسينيات حين علم أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية كانت فى مسيس الحاجة إلى من يتحدث الروسية. هذا، وكان "كريتشلو" قد أفاد من "قانون حقوق الجنود الأمريكيين"[٢٠]، حيث التحق بجامعة "جورج تاون" ليدرس اللغة الروسية بها. وبعد أن أنهى دراسته الجامعية، التحق "كريتشلو" بإحدى الوظائف بوكالة الطاقة الذرية، إلا أنه حين علم بأن صديقا يعتزم إنشاء محطة إذاعية بميونيخ، تحمس لذلك. وإلى ميونيخ توجه "كريتشلو" فى مهمة كان عَقْدها عاماً واحداً، إلا أنه قد أمضى هناك عقدين من الزمان. وبعد مضى عام على التحاقه بالعمل، أُخبِر "كريتشلو" - على انفراد - بأمر كان بالفعل قد أدركه بحدسه ... ألا وهو أن "راديو الحرية" لم يكن يدار من قبل لاجئين سوفييت، كذا فلم يكن "الراديو" ممولا بواسطة أمريكيين ذوى نيات حسنة ... إنه "جبهة مواجهة" تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ... جبهة تكرس جهودها لإطاحة الاتحاد السوفييتى وكان مسلكها، فى ذلك، تجنيد أعضاء بارزين من فريق "فون منده" بالأوستمنستريوم.

حين يجيل معظم الناس الفكر فى سياسة "الحرب الباردة" الأمريكية إزاء الشيوعية، غالبا ما تلتمع كلمة بعينها فى الذهن ... "الاحتواء" ... لقد صك الدبلوماسى الأمريكى "جورج فروست كينان" مصطلح "سياسة الاحتواء" لأول مرة فى عام ١٩٤٦ . إن سياسة الاحتواء قد صممت للحيلولة دون انتشار الشيوعية عن طريق عزلها واتخاذ مواقف متى ما كان ثمة تهديد بتطويقها لبلد أو لآخر. ولقد كان ينظر إلى تلك السياسة على كونها "سياسة صلبة" ... سياسة إيجابية تتعارض وسياسة "استرضاء هتلر" ... تلك السياسة السلبية الرخوة التى انتهجها "نيفيل

تشامبرلين" رئيس الوزراء البريطاني في حقبة الثلاثينيات. لقد كانت المواجهة المباشرة مع الاتحاد السوفييتي شبه مستحيلة، إلا أن الديمقراطيات بإمكانها اتخاذ مواقف إيجابية تحول دون انتشار الشيوعية التي يدعو إليها ... وبحلول حقبة الخمسينيات، ضاق كثير من الأمريكيين ذرعا بتلك السياسة "الحذرة". فالاحتواء، وفقا لهم، كان يسير في اتجاه مضاد للمثالية الأمريكية ... إذا، فلابد من تقويض الشيوعية برمتها واجتثاثها من جذورها واستئصال شأفتها. لذا، أضحت مصطلحات سياسية أخرى تتداول، آنذاك، من بينها "التحرير" و"الهجوم الاستباقي" – والتي تعني الانقلاب على الشيوعية من داخلها عبر إحداث الفتنة والانقسام في صفوفها.

هذا، وقد شرعت إدارة الرئيس الأمريكي "هاري ترومان" في نشر أصداء ذاك "المزاج" الجديد. ففي عام ١٩٤٨، عمد "كينان" ذاته إلى تحرير مذكرة تفسيرية تعضد فكرة "العمليات المغطاة" واستخدام "البروباغندا" ... وهو ما حدا بمجلس الأمن القومي الأمريكي إلى تبني سياسة رسمية أقرت اعتماد طيف واسع من "العمليات المغطاة" مثل البروباغندا – أي الدعاية، وآليات الحرب الاقتصادية، إلى جانب بعض السياسات الوقائية المباشرة. أما "العمليات المغطاة"، فكانت مرتبطة بالحاجة إلى ضمان توفر درجة مناسبة من القدرة على إنكار القيام بالحدث، وكذا القدرة على إخفاء ما من شأنه إثبات ضلوع الولايات المتحدة في أعمال بعينها أو رعايتها للقائمين بتنفيذها. على أنه لم يكن مقررا أن تكون جميع تلك الأعمال عنيفة بالضرورة ... إذ يندرج الكثير منها في نطاق "الحرب السيكولوجية" ... تلك الموجهة إلى المدنيين في الدولة المستهدفة.

إن تقنيات الاتصال ستضحى أدوات فاعلة في مواجهة التهديد الشيوعي. فقبيل ذلك بسنوات قلائل، سعى النازيون إلى إرهاب البريطانيين وحملهم على

الاستسلام عن طريق قصف العاصمة البريطانية لندن. إلا أن الغرب قد نجح فى تحويل هذا القصف لصالحه، ويرجع بعض الفضل فى هذا إلى "راديو الحرية". إن قرع أجراس ساعة "بيغ بين" الذى تعقبه الكلمتان الشهيرتان "هنا لندن"، والمنبعثتان من إرسال "هيئة الإذاعة البريطانية"، فضلا عن الرسائل الموجهة من "إدوارد روسكو مارو" من إذاعة ... CBS تظل جميعها ذكريات ملهمة للأمريكيين. إذا، فإن التكتيكات الإعلامية المماثلة قد تنجح فى أن تقود إلى الانتصار فى "الحرب الباردة".

إذا ... كيف السبيل لنشر "الرسالة"؟ فى أعقاب الحرب الكونية الثانية، عمد "هارى ترومان" إلى حل "مكتب الخدمات الاستراتيجية" ... وهو الوكالة الاستخباراتية الأمريكية الرئيسية آنذاك، إلى جانب غلق مكاتب الدعاية الأمريكية ... وما أشبه الليلة بالبارحة ... ففى أعقاب الحرب الكونية الأولى اتخذت خطوات مماثلة، إذ شعر كثير من الأمريكيين، آنذاك، بمثل ما سيشعرون عام ١٩٤٥ – أن الولايات المتحدة الأمريكية يجب ألا "تتورط" فى ممارسات ماكرة خادعة. إلا أن الحرب الباردة كانت قد غيرت هذا التوجه. ففى عام ١٩٤٧، وفى تحول جذرى حاد فى سياسة الولايات المتحدة، وقع "ترومان" قانون الأمن القومى الذى انبثقت بمقتضاه مؤسستان جديدتان: وكالة الاستخبارات المركزية، ومجلس الأمن القومى الأمريكى. أما الأولى فقد عهد إليها بمهمة جمع التحريات الاستخباراتية السرية وتحليلها، وأما الثانية فكانت مهمتها إمداد الرئيس الأمريكى بالاستشارات حول القضايا المرتبطة بالأمن القومى الأمريكى. أما دعاية "الحرب الباردة"، فقد سلكت طريقين اثنين: دعاية "سافرة"، وأخرى "مغطاة". فعلى سبيل المثال، كان دعم وزارة الخارجية الأمريكية لصناعة الأفلام والإذاعة والفنون وبرامج "التبادل" وإذاعة "صوت أمريكا" – يعد "دعاية سافرة"، ذلك أن دعماً كهذا يتم النظر إليه على كونه

"جهودا حكومية". أما العمليات المغطاة، فقد تراوحت ما بين مجلات ممولة لأغراض بعينها، وحملات للتشهير... كذا، فقد اشتملت تلك العمليات على شن "الحرب السيكولوجية" تجاه الخصوم والأعداء، ونشر الأكاذيب، وبث الدعايات المضللة والمعلومات المغلوطة، ونشر الذعر والرعب بين المواطنين، وتسخير أجهزة الإعلام والحملات الدعائية المنظمة، وبخاصة ضد الدول التى تتعارض سياساتها مع المصالح الأمريكية.

وفى الوقت الذى كانت ولاية "ترومان" الثانية على وشك الانقضاء، كانت جهود "الحرب السيكولوجية" وفعالياتها مشتتة بين عديد من الأجهزة، الأمر الذى أثار خلطا وارتباكا. لذا، ففى العشرين من حزيران/ يونيو ١٩٥١ وقع "ترومان" مرسوما يقضى بإنشاء "لجنة الاستراتيجية السيكولوجية" لتوحيد الخطط وتذليل العقبات أيا ما كانت ... إلا أن الهدف الحقيقى لم يكن سوى تقويض أركان الاتحاد السوفييتى باستخدام العمليات السيكولوجية. على أن "العمليات المغطاة" لم تكن لتحصر فحسب فى استهداف العالم الشيوعى، بل امتدت لتشمل "العالم الحر" أيضا. إذا، وبعبارة تخلو من التنميق اللفظى، فإن الحكومة الأمريكية يمكنها تضليل الرأى العام فى الداخل "الأمريكى"، وكذا فى العديد من بلدان غير شيوعية أخرى.

لاقت جهود "ترومان" فى هذا الصدد قبولاً واستحساناً كبيرين من خليفته "دوايت أيزنهاور" الذى اعتمد سياسات مماثلة لتلك التى اعتمدها سلفه. ولكونه أحد القادة بالحرب الكونية الثانية، فقد افتتن "أيزنهاور" كثيرا بمفهوم "الحرب السيكولوجية"[٣١] ... وهو الذى كانت عادته إعطاء أوامر بإسقاط منشورات من الطائرات قبل الشروع فى أى هجوم أملا فى تضليل العدو. ففى أثناء خوضه غمار السباق الرئاسى فى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٢، ألقى "أيزنهاور" خطابا فى سان

فرانسيسكو لدعم انتهاج "الحرب السيكولوجية" ... جاء فيه:

"هدفنا فى الحرب الباردة ليس الاستيلاء على أراض أو إخضاع الآخرين بالقوة. هدفنا أكثر براعة وأوسع مجالا وأكثر اكتمالا. نحن نحاول أن نجعل العالم يصدق الحقائق بالوسائل السلمية. والحقيقة أن الأمريكيين يريدون عالما يعيش فى سلام، عالما تكون الفرصة فيه أمام جميع البشر لأقصى تقدم فردى ممكن. والوسيلة التى سوف نستخدمها لنشر هذه الحقيقة تسمى عادة "الوسيلة السيكولوجية". لا تخافوا من هذا المصطلح لمجرد أنه كلمة من خمسة مقاطع. الحرب السيكولوجية هى الصراع من أجل إرادة البشر وعقولهم". هذا، وقد توسل "أيزنهاور" بالحقيقة الخالدة "من أن "بنى البشر هم كائنات روحانية تستجيب للعاطفة والمشاعر بمثل ما تستجيب للمنطق العقلانى والإحصاءات ... فعقول البشر كافة لتتأثر بشدة بالمؤثرات الخارجية".

إن إدارة "أيزنهاور" قد قامت بتصعيد وتيرة "الحرب السيكولوجية" ... حيث تم تعيين الجنرال تشارلز دوغلاس جاكسون[٣٢]، وهو خبير عمليات سيكولوجية بالحرب الكونية الثانية، فى منصب بالبيت الأبيض كمساعد الرئيس لشئون "الحرب السيكولوجية". وكان جاكسون قد عمل بمجلة Time الأمريكية، حيث كان الساعد الأيمن لمؤسسها "هنرى لووس". هذا، وقد ترأس جاكسون، المعروف بكونه عدوا لدودا للشيوعية، "مجلس الاستراتيجية السيكولوجية"، والذى سمى لاحقا "مجلس تنسيق العمليات" ... ذلك المجلس الذى قاد معظم أنشطة "الدعاية المغطاة" فى ميونيخ والعالم الإسلامى خلال خمسينيات القرن العشرين.

علاوة على ذلك، فقد أتى تعضيد إضافى لآلية "الحرب السيكولوجية" من مجلس الأمن القومى الأمريكى" فى ظل ولاية "أيزنهاور"، إذ صادق المجلس على مرسوم

يخول وكالة الاستخبارات المركزية نفوذا أوسع لتضليل الرأى العام. وقد ذهب "ويليام إيفان كولبى"، مدير الوكالة فى ظل ولاية كل من الرئيسين الأمريكيين الأسبقين، ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد، - إلى أن قرابة نصف ميزانية الوكالة، إبان ولاية "أيزنهاور"، قد ذهبت إلى أغراض "الدعاية" والممارسات السياسية والعمليات شبه العسكرية. كذا، فإن الوثائق المفرج عنها حديثا قد أوضحت قيام "الوكالة الأمريكية للمعلومات" -وحدها - بإنفاق نحو خمسين مليون دولار أمريكى سنويا على "العمليات المغطاة" خلال حقبة الخمسينيات. وإجمالا، فقد أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية، إبان الحقبة المذكورة، نحو نصف مليار دولار سنويا (بأسعار الخمسينيات)، سعيا منها للتأثير على الرأى العام العالمى ... وهو عمل جسيم غير مسبوق. أما الصنيعة التى جاءت بها تلك الحقبة - وهى صنيعة أكثر استغلاقا على الفهم - فكانت المؤسسة الأم لراديو الحرية، تحديدا "أمكومليب".

فى الحادى والعشرين من كانون الثانى/ يناير ١٩٥١، أنشئت "اللجنة الأمريكية لتحرير شعوب الاتحاد السوفييتى" فى ولاية "ديلاوير" الأمريكية. وللاسم صدى ووقع يوحيان بأنها منظمة غير حكومية NGO، إذ كان لها مجلس إدارة وعاملون ... وبالقطع، فقد كان المراد هو إعطاء ذاك الإيحاء، إلا أن اللجنة قد كانت - منذ إنشائها - صنيعة الاستخبارات الأمريكية.

ففى عام ١٩٤٨، قام مجلس الأمن القومى الأمريكى أثناء ولاية "هارى ترومان" بتمرير مذكرة أوضحت الحاجة إلى اعتماد آلية "للحرب السياسية". وقد اشتملت تلك المذكرة على بحث تحليلى موجز للتاريخ الحديث مشيرة إلى نجاح الإمبراطورية البريطانية فى البقاء أحقابا طوالا بسبب إدراكها لذلك الأمر. كذا، فقد ذهبت المذكرة إلى أن "الكرملين الروسى"قد اتسمت استراتيجياته بكونها الأوفر صقلا والأمضى أثرا ونجاعة على مر التاريخ. أما الولايات المتحدة الأمريكية، على حد

زعم المذكرة، فكانت مكبلة على الدوام نظرا لاستمساكها الوثيق، والعاطفى، بقواعد الأخلاق ومتطلبات "اللعب النظيف". لذا، فقد اقترحت المذكرة إنشاء "لجان تحرير" قائلة إن "لجنة أمريكية" لابد وأن تُنشئ للإبقاء على سيرة القادة من المهاجرين مائلة حية لدى العامة.

هذا، وسيظل "اسم" اللجنة يتغير مرارا إذ كانت تجاهد كيما تتوصل إلى اسم لها يبرز بجلاء مهمتها التى أنشئت لأجلها ... لذا، فقد أصبح اسمها، عام ١٩٥١، "اللجنة الأمريكية لتحرير شعوب روسيا" إذ كان من غير اللائق ذكر "الاتحاد السوفييتى"، وهو ما اعتبره بعض أعضاء اللجنة غير قانونى. إلا أن لفظة "روسيا"، فى ذاتها، قد أضحت مشكلة - إذ بدت "ضيقة" للغاية كونها تقصى "غير الروس" الذين يشكلون، فى مجموعهم، قرابة نصف عدد سكان البلاد. لذا، فقد قامت اللجنة بتغيير اسمها، مرة أخرى، عام ١٩٥٣ - ليصبح "اللجنة الأمريكية للتحرر من البلشفية"، إلا أنه قد بدا، بدوره، "عتيقا بعض الشئ - فحتى أثناء الخمسينيات، لم يكن ثمة من يتحدث عن "البلشفية" اللهم إلا كبار غلاة مناهضى الشيوعية ... إذ "البلشفية" مصطلح يعود إلى عشرينيات القرن وثلاثينياته، لذا فقد تم الاستغناء عن الكلمتين الأخيرتين من اسم "اللجنة"، وذلك فى عام ١٩٥٦، لتضحى اللجنة ذات اسم غير دال على مسماه: "اللجنة الأمريكية للتحرر". أما من هم خارج اللجنة، فكانوا يعرفونها باسم "اللجنة الأمريكية" ... وحسب، وهو ما أضفى عليها "جرسا وطنيا صافيا". أما بالداخل، فكانت تعرف بـ "أمكومليب" ... وهو اسم ذو رطانة غرائبية محببة بما يتناسب تماما وحقبة كان ديدنها صك أسماء مقتضبة ذات غموض لتطلقها على العمليات الحربية والمهام الاستخباراتية (الجاسوسية). ولعل "أمكومليب" كانت لتصلح رمزا كوديا لإحدى عمليات الإنزال المظلية وراء خطوط العدو.

ويمرور الأيام، أضحت "أمكومليب" بحاجة إلى ميزانية أضخم وعاملين قدروا بالآلاف. وفيما كانت مهمة "أمكومليب" الرئيسية إدارة "راديو الحرية"، فقد كان لها مهمتان أخريان نواتا أهمية ... إذ كانت تدير مستجمعا للأفكار think tank زعم أنه مستقل، وكان اسمه "معهد دراسات الاتحاد السوفييتى" ... ذلك المعهد الذى كان يصدر أوراقا بحثية بواسطة العاملين بأمكومليب وأناس قريبين من الوكالات الاستخباراتية. كذا، فقد كان لأمكومليب إدارة لعلاقات اللاجئين قامت بتجنيد عملاء (جواسيس)، فى ميونيخ بالأخص، وإرسالهم فى مهام "دعائية" مغطاة عبر أرجاء المعمورة. أما ضلوع حكومة الولايات المتحدة فى الأمر، فقد أمكن إخفاؤه والتستر عليه بعناية، وقد عمد مجلس إدارة أمكومليب إلى تضليل "المستمعين" والمؤيدين فى الولايات المتحدة بجعلهم يحسبون أنها تدار من قبل لاجئين وصحافيين مبرزين، بخلاف الحقيقة من أنها واجهة لوكالة الاستخبارات المركزية. فحين طبعت قوائم بمواقيت البث الإذاعى وتردد الموجات، فإن الدور الأمريكى فى هذا الخصوص قد تم التعتيم عليه عن عمد، وذلك وفقا لمحضر وقائع اجتماعات مجلس إدارة أمكومليب.

ولعل ذلك ما حال دون ورود "راديو الحرية" إلى ذاكرة العامة ألبتة، على خلاف ما جرى فيما يخص شقيقها الأوفر صيتا والأكثر شهرة – راديو أوروبا الحرة". ورغما عن أن كليهما كانا جبهتين أماميتين مقرهما "ميونيخ"، إلا أن الاثنين كانا مختلفين ... إذ يركز "راديو أوروبا الحرة" فعالياته على أوروبا الشرقية فى بلدان كبولندا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وبلدان أخر يهيمن عليها الاتحاد السوفييتى – فيما يبث "راديو الحرية" بداخل الاتحاد السوفييتى ذاته. أما المنظمة "الأم" لراديو أوروبا الحرة – أى "اللجنة الوطنية لأوروبا الحرة"، فقد اجتذبت أموالا من أمريكيين من غير ذوى الشأن بالضرورة، وكذا فإن شخصيات عامة مرموقة قد

شملوها برعايتهم ودعمهم. لقد اخترق "راديو أوروبا الحرة" الضمير الجمعي إلى الحد الذي ألهم فرقة موسيقى الروك Rapid Eye Movement (REM) إطلاق أغنية لها عام ١٩٨١ سميت Radio Free Europe – راديو أوروبا الحرة.

على أن أمكومليب ربما لم تكن معروفة للكثيرين، إلا أنه لم يَعُزْها المال قط. هذا، ومن العسير بمكان أن يتكهن المرء بحجم ميزانيتها، رغما عن تسرب بعض البيانات من خارج الحصار والتعتيم المعلوماتي المفروض عليها من قبل وكالة الاستخبارات المركزية ... إذ أفصحت السجلات عن أن حجم الميزانية كان قد بلغ، عام ١٩٥٥، مبلغ ٢,٨ مليون دولار (أى نحو ٢٣ مليونا بأسعار عام ٢٠١٠)، لتبلغ ٧,٧ ملايين عام ١٩٦٠ .

لقد أدرك العاملون براديو الحرية – سريعا – أن تمويلا كهذا لابد وأن يكون قد جلب من مصدر ذى شأن. وقد ذهب "جيمس كريتشلو" إلى القول: "إننى لا يساورنى أدنى شك فى أن أيا من العاملين فى بنايتنا بأوبرفيزنفلد لابد وأن تكون لديه ولو لمحة أو معرفة طفيفة بحقيقة الأحوال".

إن "كريتشلو" قد دافع باستماتة عن "راديو الحرية". ففى عام ١٩٩٥، كتب الرجل مذكرات ماتعة شائقة عن محطة الإذاعة تلك قام بنشرها فى صورة كتاب. هذا، وقد لاحظ "كريتشلو" أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية قد أبقت نفسها بعيدة عن فعاليات البث والإرسال ... كذا، فقد قال: "إنه إذا ما تريث المرء ليفكر مليا بشأن الحجم الهائل للمواد التى ترد يوميا إلى "راديو الحرية"، والسرعة التى يتحتم تناولها بها، والقرارات الفورية التى يتعين اتخاذها ... سيكون جليا – ساعتها – أنه لن يكون بمقدور أية وكالة، بخلاف "الراديو"، أن يكون لها رقابة فاعلة. إذا ... لابد وأنهم يثقون بنا".

وبالقطع ... كانت وكالة الاستخبارات المركزية على قدر من الذكاء لتقوم بذلك. فينبغى ألا تكون الدعاية مغرضة أو مضللة ... فالدعاية تكون أكثر فاعلية وأمضى أثرا حين تكون صادقة، أو أقرب ما تكون إلى الصدق كلما أمكن ذلك. لذا، فإن كثيرا من العاملين بقطاع العمليات قد شعروا بالرضا عما كانوا يؤدون من أعمال ومهام – نشر معلومات عن نظام سياسى كريه.

إنه لمن دواعى فخر "راديو الحرية" أن يكون قد وفق فى اجتذاب كفاءات كبيرة بحجم "كريتشلو" وأضرابه. فمنذ إنشاء الراديو، ضمت قائمة العاملين صحافيين أكفاء من أمثال "ادموند ستيفنز"، وهو صحافي حاز جائزة "البوليتزر"، وتم توظيفه ليقوم بتدريب العاملين بالراديو. أما قلب "العمليات" النابض فكان "بوريس شوب"، المولود لأسرة من "اللاجئين". ولكونه ألمعيا ذا ثقافة رفيعة وذكاء، فقد ألهم زملاءه برؤيته بشأن "روسيا ديمقراطية حرة". ولقد كانت إحدى أفكار "شوب" – التى أضحت إحدى استراتيجيات وكالة الاستخبارات المركزية ذات الشأن – مؤداها استخدام اليساريين المتحررين من "الوهم" للهجوم على الاتحاد السوفييتى. وقد أطلق "شوب" على تلك الاستراتيجية: "برثنه اليسارى".

إن "راديو الحرية" قد أرسى دعائم قوية من "روح الجماعة" فى العمل. إذ ما يزال الكثير من العاملين يذكرون سنوات عملوا خلالها به على أنها أجمل سنى حياتهم ... أوقات كانوا يسافرون خلالها خارج البلاد والعمل رفقة جماعة رائعة من اللاجئين. هذا، وقد قام العديد من العاملين السابقين براديو الحرية بكتابة مذكرات وكتب تناولوا فيها الحياة في داخل "الراديو". إن الكثير من العاملين السابقين بالراديو قد ذهبوا إلى التقليل من أهمية صلات الراديو بوكالة الاستخبارات المركزية، أو تجنبوا الخوض فى تلك الصلات، وهو عين ما ذهب إليه "كريتشلو" من قبل. وقد كتب "كريتشلو" فى لهجة دفاعية: "ساكون محاطاً بالعديد من الرجال

الأوفياء والنساء المخلصات الذين يذيعون الأخبار براديو الحرية، إذا ما سعيت إلى ربطهم بعالم الاستخبارات الغامض المريب".

وهذه حقيقة لا مراء فيها ... إذ لم يكن "كريتشلو" أو أي من العاملين براديو الحرية عميلا أو جاسوسا. فخلال عقدين من الزمان أمضاهما بالراديو، أضحى "كريتشلو" صحافيا قديرا هناك ... فوكالة الاستخبارات المركزية لا يعنيه أمرها كثيرا، إذ ليست على ذلك القدر من الأهمية.

إلا أن آخرين من أمثال "جين سوسين" قد رأوا الأمر رؤية مغايرة ... إن "سوسين" الذي التحق بالعمل براديو الحرية في خريف عام ١٩٥٢، وتدرج في المناصب حتى شغل منصب المدير ... قد ذهب إلى القول بأنه رأى الأمر غريبا أن تقال الأكاذيب باسم إذاعة "الحقائق". هذا، وقد كتب "سوسين"، في مذكراته التي ضمتها دفتا كتاب عنوانه "شرارة الحرية، ذكريات من داخل راديو الحرية" ... إنه سمع، حين التحاقه بالعمل، أقاويل بأن "راديو الحرية" ما هو إلا أداة من أدوات وكالة الاستخبارات المركزية، وقد تأكد الأمر لديه حين طُلب إليه أن يوقع تعهدا بألا يفشي ذلك السر. كذا، فقد كتب "سوسين": "إن بعض مسئولي الوكالة قد طلبوا إليه، في نيسان/ أبريل ١٩٦١، أن يذهب إلى جامعة "كورنيل" برفقة كل من "فاليريان أوبولينسكي" و"إسحاق باتش" للقاء البروفيسور الأمريكي، الروسي المولد، "يوري برونفينبرينر" – خبير "التعليم الروسي" ... الذي سافر إلى الاتحاد السوفييتي عن طريق منحة دراسية من "صندوق التنمية البيئية البشرية" ... ذلك الصندوق الذي علم "برونفينبرينر" لاحقا أنه مدعوم في الخفاء من قبل وكالة الاستخبارات المركزية. وفي أعقاب زيارة له إلى "راديو الحرية" بميونيخ، خشي رجال الوكالة أن يعمد الرجل إلى ربط "الراديو" بأنشطة الوكالة، لذا عُهد إلى "سوسين" وزميليه القيام بتبديد أية شكوك قد تكون قد تطرقت إليه فيما يخص

"الراديو" ... أى أن "سوسين" كان فى مهمة لتبرئة الساحة وإعلام "البروفيسور" باستقلالية "راديو الحرية".

ويستطرد "سوسين" فيذكر كيف أمضى ثلاثتهم سحابة يوم بأكمله مع البروفيسور وعدد من زملائه، حيث أخبروهم عن أنشطة "الراديو" وأهدافه النبيلة !! ليعودوا أدراجهم مؤمنين بأنهم قد نجحوا فى تدارك الموقف. "وبالفعل"، وفقا لسوسين، "لم يحدث شيء بعدها على الإطلاق - إلا أننى لم أطق رؤية العوار فى أن يعمل المرء لدى كيان يذيع "الحقائق"!! للشعوب السوفييتية، فيما يعمد إلى الأكاذيب مع أهله وشعبه". إلا أنه كان لدى "أمكوملب" سر آخر ... سر من الأرجح أن يكون الأمريكيون ليجدوه كريها ... ألا وهو الخاص بالعاملين المهاجرين.

فى أعقاب الحرب الكونية الثانية، كان معظم الجنود السوفييت ممن تعاونوا مع ألمانيا النازية قد انتهى بهم المطاف فى معسكرات "لاجئى الحرب" الغربية. وقد أرجع الكثيرون الفضل فى ذلك إلى "غرهارد فون منده" قائلين إنه قد خطط عملية انتشارهم غربا فى الأشهر الأخيرة من الحرب. هذا، ومن المستحيل إثبات صحة ذلك الأمر ارتكانا إلى السجلات التاريخية. على أية حال، فإن انتهاء المطاف بهم فى تلك المعسكرات قد أفاد قلة منهم. وخلال مؤتمر "يالطا" - ١٩٤٥ - وافق كل من الاتحاد السوفييتى وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية على إعادة جميع المواطنين إلى أوطانهم. ولم يكن ثمة بأس، بل كان الأمر مستحسنا ... إذ يتوق البشر، فى معظمهم، إلى العودة إلى الوطن الأم. إلا أن الأمر قد مثل كارثة للمئات من الآلاف من المواطنين السوفييت الذين حاربوا ضمن الصفوف الألمانية ... إذ ذهب معظمهم، وبحق، إلى أنهم سيقتلون فى الحال، أو أنهم - إذا كانوا من سعداء الطالع - سيمضون آمادا طوالا داخل المعتقلات والمنافى السوفييتية جزاء خيانتهم للأوطان.

obeikandi.com

فحين وضعت الحرب أوزارها، سيق الجنود إلى "معسكرات انتقالية"، حيث تم إعادة معظمهم إلى أوطانهم. بيد أن أوروبا كانت فى حالة أقرب ما تكون إلى "الفوضى"، كذا فقد كانت ألمانيا غاصة بالمرحلين. والمرحلون هم مزيج من عمال "السخرة النازية"، وسجناء معسكرات الاعتقال النازى، والألمان الفارين من المذابح السوفييتية، والآلاف من المواطنين السوفييت الذين قاتلوا فى صفوف النازى وأفلتوا من معسكرات لاجئى الحرب. هذا، وقد قدر المسئولون الألمان والصليب الأحمر عدد المرحلين فى ألمانيا بثمانية ملايين مرحل بنهاية الحرب الكونية الثانية، ينتظر معظمهم العودة إلى بلدانهم. وفى غضون زمن وجيز، عمدت السلطات البريطانية والأمريكية إلى إرسال مليونين من أولئك المرحلين إلى الاتحاد السوفييتى وفقا لمقتضيات مؤتمر "يالطا" ومقرراته.

إلا أن القوات المحتلة قد عانت مأزقا. فللألمعى متوقد القريحة ذى الحظ الوافر، كانت فوضوية الموقف تعنى فرصة لبدء "حياة جديدة". وهنا، كان الجنود المسلمون هم الأوفر حظا. فعلى مدار أغلب فترات الحرب، ظلت تركيا على حيادها محتفظة بتمثيل دبلوماسى اعتيادى مع ألمانيا، وكذلك الأمر فيما يخص بعثات التبادل الأكاديمى. كذا، فقد أنشئ – آنذاك – اتحاد للطلاب الأتراك ممن كانوا يدرسون فى ألمانيا أثناء الحرب. ونظرا لغلبة النزعة الوطنية والقومية "الطورانية" على التوجهات الفكرية لأولئك الطلاب، فقد شددوا على حل يسير المأخذ لإنقاذ إخوانهم من ذوى الإثنية التركية ... ذلك الحل المتمثل فى الإعلان عن أن الجنود أتراك، وإمدادهم ببطاقات طلابية لتحقيق الشخصية وإثبات الهوية.

ولم تكن الفكرة بعيدة الاحتمال كما كانت تبدو ... إذ تأرجحت أعمار معظم أولئك الجنود فيما حول العشرين. فإذا كان لديهم ذهن حاضر يقظ، وعمدوا إلى إخفاء ملابسهم وأية أوراق دالة على التحاقهم بأسراب الدفاع والجيش الألمانى قبل

الدخول إلى معسكرات المرحلين ... فلن ينهض أدنى دليل على حقيقة هوياتهم أو طبيعة أعمالهم ونشاطاتهم. وبما أن "لسانهم الأم" هو لسان ذو لهجات تركية، فبقليل من الصقل يكون بمقدورهم ولوج المعسكرات كطلبة "أتراك".

أما اتحاد الطلاب الأتراك، فكان مقره "برلين" – إلا أنه، ومع ازدياد وقع القصف وثقل وطأته، انتقل الاتحاد إلى المدينة القروسطية "توبنغن" ذات الجامعة الشهيرة، حيث تقع المدينة جنوبي ألمانيا ما يجعل الطلبة على مقربة من معسكرات اللاجئين، وبخاصة في القطاع الذى تحتله الولايات المتحدة الأمريكية. وما هى إلا أشهر قلائل حتى كانوا يصدرون "هويات تركية" بالجملة. وحرصا منهم على تضليل المسئولين المتشككين لإبعاد الشبهات عنهم، فقد زعموا أن بعض الطلبة ينتمون إلى "سينكيانغ"[٣٣] الصينية، وهى مقاطعة تقع غرب الصين تقطنها أقلية "تركية" كبيرة العدد.

إن "سينكيانغ" ستكون الموطن الجديد لغريب سلطان ... الذى أرسل بعد انقضاء الحرب إلى أحد معسكرات المرحلين. وهناك ... منحه الطلبة "اسما جديدا"، وهو الاسم الذى ظل يحمله ويعرف به، "غريب"، وذلك عوضا عن "النسخة الروسية" من الاسم "غريف". ووفقا لسلطان: "لقد أضحينا ذوى إثنية تركية، إذ أعطيت هوية من "كاشغر"، وهو ما أسهم فى نجاتى".

تلك كانت خدعة وحيلة لجأ إليها العديد من نواب "فون منده" البارزين، من بينهم اثنان سيضطلعان بدور كبير فى أعقاب الحرب، وهما الناشط السياسى "ولى قيوم"، وضابط الاتصال "باى ميرزا هاييت". وقد قام الاثنان يقصدان تشيكوسلوفاكيا حيث استسلما للجيش الأمريكى هناك. تلا ذلك إرسالهما، فى الحال، ليتم استجوابهما من قبل "جهاز مكافحة التجسس" التابع للجيش الأمريكى.

هذا، وقد سعى اتحاد الطلاب الأتراك إلى التدخل لأن يكون ضامنا لهما، إلا أن الأمم المتحدة لم تُعِدْهما إلى وطنيهما.

أما "هاييت"، الذى أصبح - لاحقاً - مؤرخا للكفاح التحررى لآسيا الوسطى، فقد قدر أن ثمانمائة مسلم ينتمون إلى آسيا الوسطى قد أفلتوا من أن يمسك بهم، وذلك باعتماد حيل كتلك، فيما أوردت تقديرات أخرى أعدادا أكبر ... إذ ذهب أحد الكتاب الألمان، ويدعى "باتريك فون تسور مولن"، فى كتابه المعنون: "بين الصليب المعقوف والنجمة السوفييتية"، والصادر عام ١٩٧١ - إلى أنه، وخلال الخمسينيات، كان سبعمائة من الكالميك يحيون فى ألمانيا الغربية. وقد كانت أعداد الكالميك صغيرة، إذا ما قورنوا بجماعات إثنية أخرى. فإذا كان للمرء أن يستنتج باعتماد التناسب، وباستخدام أعدادهم ... فسيخلص إلى أن نحو عشرة آلاف سوفييتى من شتى التوجهات والإثنيات قد بقوا فى ألمانيا الغربية بعد انقضاء الحرب. وبالطبع، فإن هذا الرقم مغال فيه، إلا أنه يظل من الممكن القول ببقاء عدة آلاف هناك.

قد لا تكون آليات الحيلة والخداع التى اعتمدها الطلاب الأتراك قد أحرزت نجاحا - على نحو مطلق - إلا أنه لم يكن ثمة حاجة إلى انتهاج حيل كتلك طويلا. ففى نهاية عام ١٩٤٥، كانت حركات العودة إلى الأوطان قد توقفت، وهو ما عمد إليه "أيزنهاور" بعد أن تعالت الانتقادات الذاهبة إلى أن الرجال كانوا يعادون إلى أوطانهم ليساقوا إلى الموت المحقق زمرا ... فحتى لو كانوا قد حاربوا فى صفوف النازى، فإن ذلك لم يكن ليجعلهم أسوأ حالا من ملايين الألمان ممن لم يساقوا إلى الموت زمرا. إذا، فلم تستهدف الأقليات الإثنية السوفييتية دون غيرها وترمى بعقوبات كتلك؟! لقد أضحى من غير المقبول، بل ومن المستحيل، تجاهل أوضاعهم البائسة خاصة بعد أن أقدم ٢٣٠ ضابط تركستانى، زج بهم فى معسكر خارج ميونيخ، على الانتحار ليلا قبل ساعات من ترحيلهم المزمع إلى الاتحاد السوفييتى

... فما كان منهم إلا أن صبوا وقودا على أجسادهم وأضرموا النيران فى أنفسهم. هذا، ولم ينج من تلك الجماعة سوى فرد وحيد تم ترحيله إلى العاصمة التركية، أنقرة، حيث توفى عام ١٩٥٠ .

وفى غضون عدة أشهر، اتخذت جهود إعادة الأقليات إلى أوطانها مسارا مغايرا، إذ أضحى حقا مقررا للجميع إبقاؤهم وتجنيدهم. هذا، وقد عمد جهاز مكافحة التجسس إلى إنقاذ الأمير الجورجى "ميخائيل الشيبايا"، أحد مسئولى الجهاز، حين نحاه أحدهم جانبا قائلا له إنه يجب أن ينتظر زيارة لفريق إعادة التوطين السوفييتى فى اليوم التالى، ثم أضاف مشددا: "لست ملزما أن تكون موجودا ساعتها" ... فهم "ميخائيل" الإشارة، ليرتحل إلى بعض التلال بشمال بافاريا حيث مكث أياما قلائل حتى رحيل الفريق السوفييتى عن المنطقة.

وقد أضحى إسداء العون شائعا آنذاك. فحتى فى عام ١٩٤٥، كانت وكالات الاستخبارات الغربية ما تزال متشككة بشأن النيات السوفييتية فى مرحلة ما بعد الحرب. وقد شرعت تلك الوكالات فى تجنيد عملاء (جواسيس) يمكنهم أن ينشطوا فى الاتحاد السوفييتى.

كذا، فقد أدلت المنظمات "الخيرية" بدلوها فى هذا المضمار. ومن الأمثلة على تلك المنظمات، "مؤسسة تولستوى" التى أنشئت كجماعة ثقافية لسوفييتى المنفى على يد ابنة الروائى الروسى الشهير[٣٤]. هذا، وقد سعت المؤسسة إلى مد يد العون للاجئين، فقامت بإرسال موظفين من لدنها إلى معسكرات المرحلين للتعرف إلى هويات الموجودين بها ومساعدتهم فى الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو فتح صفحة جديدة من حياتهم فى ألمانيا. إلا أن المؤسسة كانت تمارس بعض المهام الاستخباراتية، بل ربما تكون قد مُوِلت مباشرة من قبل وكالة الاستخبارات المركزية

الأمريكية. أما "نينا الشيبايا"، زوجة "ميخائيل"، الأمير الجورجي - فقد كانت تعمل لحساب مؤسسة تولستوى حيث ذكرت، فى لقاء جمعنى بها فى السادس عشر من آب/ أغسطس ٢٠٠٤ بميونيخ، أن المؤسسة كانت تنشط فى بعض الأعمال والمهام الاستخباراتية التى سربتها الوكالة إليها ... فكأنها تجنيد "من الباطن". واستطردت "نينا" لتقول: "لقد أجرينا بعض اللقاءات نيابة عن الوكالة حيث سألنا من أجريت معهم اللقاءات عن خلفياتهم، وأعمالهم ... وهلم جرا". وكان الهدف هو تجنيد الرجال لأغراض "العمليات السرية".

كان "غريب سلطان"، خلال عام ١٩٥٢، يبحث عن عمل له ... فهو الآن متزوج ولديه إقامة دائمة بألمانيا الغربية. إذا، ما عساه فاعل فيما تبقى له من العمر؟ إنه الآن فى التاسعة والعشرين حيث أنضجته الليالى إلى رجل وسيم قسيم ذى شعر أسود، وأنف رومانى معقوف. وكان "سلطان" وزوجته يفكران - آنذاك - فى الإنجاب. كذا، فقد انخرط "سلطان" فى مناهضة الشيوعية تحدوه رغبة في الثأر ... إذ التحق، فى الأربعينيات، بالرابطة الاسكتلندية لتحرير أوروبا، وهى رابطة مدعومة من جهاز الاستخبارات البريطانى. وقد سعت الرابطة إلى حشد أفراد من الأقليات السوفييتية - كالتتر - بغية مجابهة الاتحاد السوفييتى، ما أفضى إلى منظمة كانت أطول عمرا هى "كتلة الأمم المناهضة للشيوعية". وكانت الرابطة والمنظمة - كلتاهما - صنيعتى الاستخبارات البريطانية ... حيث كانتا غاصتين بأفراد تعاونوا فيما قبل مع الأوستمنستريوم تحت قيادة "غرهارد فون منده". إذا، كان سلطان - ساعتها - باحثا عن عمل يتيح له "دخلا" حقيقيا، ويمكنه، فى الوقت ذاته، من الاستمرار فى مناهضة الشيوعية. ولقد وجد الرجل ضالته فى ... "راديو الحرية".

لقد كان أحد أسباب اختيار "سلطان" لراديو الحرية أنه كان يعرف - بالفعل -

كثيرا من العاملين به. وكانت محطة "الراديو" تعمل وفق نظام "الديسك"، حيث كان كل "ديسك" يختص بقومية معينة – القومية الروسية/ القوميات غير الروسية. أما مفهوم البرامج والتعليمات المنظمة لها فكان يتم إعداده في نيويورك، بيد أنه كان لكل "ديسك" في المحطة بميونيخ حرية انتقاء المواضيع المزمع تغطيتها بالتناول، وكذا حرية اختيار الأفراد الذين ستجرى معهم الأحاديث واللقاءات. ولم يكن ذلك الأمر مستغربا من قبل المذيعين. أما "ديسكات" القوميات غير الروسية، فقد سارت على النهج ذاته الذى اتبعته "اللجان القومية" بالأوستمنستريوم من قبل، وذلك فى مناح عديدة كتوظيف "عمالة" مشابهة، بل واستخدام مصطلحات "إثنية" استخدمها "النازى" من قبل – كأورال الفولغا للإشارة إلى التتر من إقليم نهر "الفولغا".

كان جل العاملين بالديسكات، قد عمل لدى الأوستمنستريوم سابقا. ففضلا عن "غريب سلطان"، كان هناك كبار موظفى الأوستمنستريوم المرموقين أمثال "أمان بردى مراد" و"ولى زنون" فى الديسك التركستانى، و"حسين إخران" فى الديسك الأوزبكى، والدكتور "إيديك مصطفى كيريمال" فى الديسك التترى، و"عبد الرحمن فاتاليايلى" فى الديسك الأذربيجانى[٣٥]. وبعد مرور عام من بداية عمل "راديو الحرية" والبث عبر الأثير، تخلف "فاتالبايلى" يوما عن العمل. وعقب تحريات من جانب الشرطة، وجدت جثته موثقة بحبل وممثلا بها وذلك فى شقة لأذربيجانى آخر هرب إلى ألمانيا الشرقية. وبجوار الجثة، كان ثمة لافتة كتب عليها: "خائنو الوطن الأم" فى إشارة إلى "فاتالبايلى" ... ومن ثم كانت لافتة تحذير لأمثالة ممن قد يقدمون على "خيانة الوطن". ولم يمض وقت طويل، إلا ووجدت جثة لأحد العاملين بديسك "روسيا البيضاء" غارقة فى نهر "الإيزار" ... على أن الشرطة لم تنجح فى كشف غموض الحادثين ودوافعهما، إلا أن موظفى "الراديو" افترضوا ضلوع السوفييت فى اقتراف كلا الحادثين.

غالباً ما يتم فحص المأجورين ممن يعملون لدى أجهزة الاستخبارات، وتجرى تحقيقات معهم وذلك للتأكد من أن سيرهم الذاتية لا تحوى أية شبهات أو فضائح، إلا أن هذا المنحى لم يؤخذ به فيما يخص "راديو الحرية" الذى استعان – على نحو كبير – بلاجئين كثر تعاونوا مع "النازية" إلى الحد الذى كان "الراديو" ليُغلق بدونهم. ووفقا لتقرير ورد بمذكرة مؤرخة في الثامن من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٥٨، فإن نسبة العاملين براديو الحرية ممن تعاملوا سلفا مع "النازى" قد تراوحت ما بين الـ ٧٥٪ والـ ٨٠٪.

هذا، وقد أورد "جيمس كريتشلو" فى مذكراته الواردة فى كتابه عن "راديو الحرية"أن "ثمة مشكلة لدينا فى الراديو، ألا وهى ميل العديد من جمهوره إلى اعتبار العاملين، من اللاجئين، على أنهم خائنون لأوطانهم الأم" ... مضيفا أنه وفقا للأمريكيين من جيلى، فإن العديد منا ممن خاضوا غمار الحرب الكونية الثانية ينظر ببعض البغض والامتعاض حين العمل مع أناس قد ارتدوا لباس الحرب الألمانى، بغض النظر عما كانوا قد اقترفوا جرائم حرب أم لا ... ومع ذلك، فثمة العديد من أولئك فى بناية "راديو الحرية" بأويرفيزنفلد.

إلا أن سبيلا قد وُجد للتعامل مع تلك المشكلة. فغالبا ما كان يجلس الأمريكى إلى زميله (النازى سابقا) ليتحادثا، فيؤكد له زميله أنه لم يكن ثمة بد من خدمة "الرايخ"، أو يخبره على نحو أكثر صرحة، بأنه كان غضا غريرا ... فأولئك الذين تعاونوا، أنفا، مع النازيين لم يزعموا ألبتة أنهم قد صدقوا الدعاية النازية المعادية للسامية ... تلك الدعاية التى شاركوا فى صنعها أو غُذيت عقولهم بها. إذا ... فقد كان كل منهم ضحية بالفعل!! وعند هذا الحد من المحادثة يذهب المتحادثان لتناول مشروب أو آخر ... ليتم توطيد صداقتهما ثانية.

بيد أنه ومن الوجهة التاريخية ... فإن الأشباه والنظائر ما بين أمكومليب والأوستمنستريوم لتبدو صارخة جلية بما يكشف زيف الادعاء أو التملص من ماض نازى مشين ... فالجنود السوفييت العاملون براديو الحرية لم يكونوا مجرد جنود، أو حتى ضباط، التحقوا بالجيش الألمانى (النازى) أو "أسراب الدفاع" قنوطا واستيئاسا. لقد تم إعادة معظم جنود سلاح المشاة الذين خدموا "النازى" إلى أوطانهم ... أما أولئك الباقون، فقد تم زراعتهم من قبل "النازى" للعمل فى الأوستمنستريوم، ومن ثم أضحوا "صفوة سياسية". إذا ... فكثير من أمثال "غريب سلطان" قد عُهد إليهم بمسئولية "البروباغندا"، والتى انصرفت – فى الحقبة النازية – إلى جرعات "مكثفة" من الرطانة العنصرية واللهجة "المعادية للسامية".

إن تجنيد أناس كهؤلاء كان أكثر من مجرد "مأزق أخلاقى" ... فالسوفييت كانوا يعلمون خلفياتهم، فكانوا يتهمون العاملين براديو الحرية ليس فقط بأنهم عملاء لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، بل متعاونون سبق وأن تعاملوا مع "النازى". لقد كانت الحكومة الروسية – وعلى نحو متواتر – تجبر العاملين براديو الحرية على العودة إلى موسكو عن طريق احتجاز البعض من أفراد عائلاتهم كرهائن – على سبيل المثال. ولكى يحصل هؤلاء العاملون السابقون على العفو، كان عليهم أن يدلوا بأسماء زملائهم السابقين ممن تعاونوا، فى السابق، مع النازى.

وبذا، فإن المسلمين العاملين براديو الحرية لم يكونوا ذوى فاعلية تذكر. فحين كانوا يُرسلون فى مهام دعائية مغطاة، كان يسهل – آنذاك – أن يلفظهم السوفييت ويشوهون سمعتهم كجواسيس نازيين. كذا، فقد كانوا يفتقرون إلى المصداقية "كمسلمين ملتزمين دينيا، إذ لم يكن لديهم تعليم دينى – لا فى الاتحاد السوفييتى ولا فى ألمانيا النازية" ... اللهم إلا لماما. وحين عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى

استخدامهم فى نشر "الدعاية"، ذهب النقاد إلي أن ماضيهم "النازى" قد عمل على نسف "أهليتهم" من الجذور ... كذا، فقد كان لفشلهم عواقب وخيمة وآثار جسيمة فيما يخص مستقبل "الإسلام" فى أوروبا ... فكان أن سعت الولايات المتحدة إلى البحث عن مسلمين أكثر مصداقية بين صفوف الجماعات الراديكالية.

قبل أن تشرع محطة "راديو الحرية" فى البث، قرر مسئولو أمكومليب أن البث لن تكون له "مصداقية" ما لم يتم بواسطة "اللاجئين" ... إذ سيعطى ذلك انطباعا بأن ائتلافا واسع النطاق قد تشكل فى وجه الاتحاد السوفييتى ... ائتلافاً يقوم ببث الأخبار صوب "الوطن". فوفقا لويليام كلمب، أحد العاملين بأمكومليب، فى حوار أجريته معه فى السابع عشر من كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٦ بنيويورك سيتى، فإن "هدفنا كان الإيحاء بأن أمكومليب تتشكل من جماعات اللاجئين، لا من عملاء لوكالة الاستخبارات المركزية ... وهذا هو السبب وراء الأهمية الكبرى التى نوليها لتلك الجماعات".

إلا أن "اللاجئين" لم يكونوا كتلة متجانسة ... إذ انقسموا وفقا لانتمائهم الإثنى – على وجه التقريب – إلى: "الروس" من جهة، و"غير الروس" من جهة أخرى. هذا، وقد تشكل ذلك الفريق الأخير من أوكرانيين وجورجيين وأرمن وتركستانيين، ... إلخ. وبغية تحقيق تناغم وائتلاف بين الفريقين، عمدت أمكومليب إلى إنشاء "مركز تنسيق" وذلك فى ميونيخ فى كانون الثانى/ يناير ١٩٥١، حيث تم إدراج جميع العاملين اللاجئين على لائحة مرتبات "المركز". إلا أنه، وعلى مدار عامين كاملين، ذهبت الجهود الأمريكية أدراج الرياح. لقد سعت أمكومليب إلى ترتيب "معادلة" ما – أى التوصل إلى نوع من الاتفاق الذى لم يفلح "النازى" فى تحقيقه ... فقد سعت بدأب كبير إلى جعل اللاجئين (من "الروس" و"غير الروس") يعملون معا، إلا أن جهودها قد باءت بالفشل، وخاب مسعاها فى هذا الصدد. ورغما عن تحكم

الأمريكيين فى ميزانية أمكومليب واستئثارهم بمقدرات "اللاجئين" المالية، إلا أنهم قد فشلوا فى تحقيق أدنى تقدم. فوفقا لأحد تقارير أمكومليب، صيغ الأمر كالتالى: "بغض الطرف عما إذا كان القياس أو التناظر المطروح هنا ليجد تبريرا أم لا، فإنه يبدو أننا نواجه – اليوم – المشكلات ذاتها وأنماط شخصية اللاجئين نفسها التى واجهتها الحكومة الألمانية بين عامى ١٩٤١ و١٩٤٥ أثناء حربها ضد الاتحاد السوفييتى".

فحين اعتلى "أيزنهاور" سدة الرئاسة، تلقى أحد كبار معاونيه خطابا مريرا من مسئول براديو الحرية ذكر فيه أن أمكومليب كانت "إخفاقا ذريعا وفشلا محققا"، إذ غرقت فى نزاعات مريبة وخلافات ملغزة ... فحتى وهى لم تشرع فى البث بعد كانت تغدق على اللاجئين بسخاء فى محاولة منها لتحجيم اختلافاتهم وتجاوزها. أما مسئولو أمكومليب، فقد حاولوا تبرئة ساحاتهم قائلين إنهم كانوا بحاجة إلى جبهة موحدة كيما يضفوا على "الراديو" المصداقية المطلوبة.

واستشعارا منها باليأس، استعانت أمكومليب بمسئول "مخضرم" بوزارة الخارجية الأمريكية هو "إسحاق باتش". وكان "باتش" قد عمل بموسكو وبراغ إلى أن قامت الحكومة الشيوعية هناك بطرده. هذا، وقد وصفه أحد معاصريه بأنه "طويل القامة، نحيل، داهية، ذو مظهر مخملى وسلوك مخاتل" ... إلا أن مهمة "باتش" كانت مستحيلة.

"إنهم المسلمون فى مواجهة السلافيين (الروس)" قالها "باتش" مستدعيا الذاكرة، ليستطرد: "إن المسلمين قد شعروا أن الروس ذوو نزعة شوفينية، إذ كان المسلمون يتوقون إلى الاستقلال، وكانوا يشددون على ذلك أملا فى نيل حرياتهم ... ولم يعنهم أمر (المشهد برمته)"، بمعنى مجابهة الشيوعية ... تلك التى كان يتوق

إليها الأمريكيون.

أما أمكومليب، فقد قامت بمحاولة أخيرة للتوصل إلى إجماع فى منتجع عند بحيرة "تيغر" إلى الجنوب من ميونيخ ... إلا أن الأمر كان كارثيا ... وهنا وردت فكرة جديدة إلى خاطر أحد المجتمعين: إذا كان الأمريكيون يواجهون المشاكل ذاتها التى واجهها الألمان منذ عقد مضى، يضحى من المستساغ أن يتم طلب مساعدة الألمان المنتمين إلى تلك الحقبة. لذا، فقد يمم "إسحاق باتش" ومسئولون آخرون من أمكومليب شطر "صديق" قديم للاستخبارات الأمريكية ... إنه "غرهارد فون منده".

فى الثانى من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٤٤، أرسل مكتب الخدمات الاستراتيجية ... الكيان الذى جاءت "وكالة الاستخبارات المركزية" لتخلفه - عميلا اسمه الكودى "روبيرت" Ruppert إلى خطوط الجبهة الأمامية بالقرب من مدينة "جيرارميه" الفرنسية، حيث عُهد إليه بمهمة غير اعتيادية، ومن ثم تم إعداده وفقا لمتطلبات المهمة[٣٦]. لم تكن مهمة "روبيرت" القيام بتحريات ما، كآخر تهديد - مثلا - يكون الألمان قد احتفظوا به فى جعبتهم، بل كان هناك - بالمقابل - للتخطيط لحقبة ما بعد انقضاء الحرب، فكان تحفيز المسئولين النازيين المرموقين وحثهم على إنهاء خدمتهم هدفا محوريا من أهداف المهمة. إذا ... فعوضا عن حمل جهاز إرسال لاسلكى أو أية أداة لإرسال رسائل عاجلة، كان "روبيرت" ممن نفروا خفافا فلم يحمل معه الكثير، بل كان رفيقه فى الرحلة "رشوة" قدرها عشرة آلاف دولار أمريكى، منها "عملات" ذهبية خُبئت بداخل حذاءيه.

هذا، وقد قصد "روبيرت" برلين رأسا، حيث أمضى بها خمسة أشهر ونصف الشهر منتحلا صفة مسئول أمنى نازى حيث تبادل الأحاديث مع أعضاء من الحزب

"النازى". وفى أعقاب انتهاء مهمته، ارتحل "روبيرت" إلى سويسرا ... فلم يشهد أية مؤتمرات نازية للمقاومة ولم يقم بإغراء أى مسئول نازى رفيع كى ينشق ... بيد أنه قد عمد إلى تجنيد مجموعة أناس يمكنهم التأثير على مدرائه الأمريكيين: نازيين تواقين إلى مناهضة الاتحاد السوفييتى. وكان أبرز من قام "روبيرت" بتجنيدهم – "غرهارد فون منده"، الذى كان يحظى بتقدير استثنائى نظرا لإيمان الاستخبارات الأمريكية باحتفاظه بعلاقات وثيقة العرى مع وحدة الاستخبارات التابعة للجيش النازى.

وبعد أن ارتحل "روبيرت"، يمم "فون منده" قاصدا سويسرا. ففى سيرتها الذاتية "وتمضى الحياة" – تذكُر "كارولين اسبيزيت"، زوجة "فون منده"، أنه كان يأمل أن يلتقى "كارل ياكوب بوركهارت" – الدبلوماسى والمؤرخ السويسرى، ورئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر – لطلب مساعدته فى إنقاذ الجنود السوفييت الضالعين مع الأوستمنستريوم. ووفقا لسجلات "الصليب الأحمر"، فإن أحد رجال "فون منده"[٣٧] قد قدم – بالفعل – جنيف فى أواخر عام ١٩٤٤، وهو ما يتماشى مع أنشطة "روبيرت" فى برلين ... إلا أن سجلات "الصليب الأحمر" لم تورد أى لقاء ألبتة. هذا، وفى الوقت الذى وصل "فون منده" إلى الحدود السويسرية فى أيار/ مايو ١٩٤٥، كانت الحرب قاب قوسين أو أدنى من وضع أوزارها ... لذا، فقد أُرجع أدراجه، ليُرسَل هو وثلاثة من العاملين الجورجيين بالأوستمنستريوم إلى معسكر أمريكى للسجناء فى مدينة "هوكست" النمساوية.

وذاك هو الموضع الذى وجدتهم القوات الأمريكية فيه، حيث طلب الألمان – من فورهم – التحدث إلى أحد مسئولى "مكتب الخدمات الاستراتيجية" ... وبالفعل، فقد كانوا يتحدثون إلى أحدهم ... إن ذلك قد يكون اتُفِق عليه – مقدما – بواسطة "روبيرت". أما مسئول "مكتب الخدمات الاستراتيجية" فقد كتب فى تقريره: "إننى

على يقين أن المجموعة كانت تعلم أن مكتب الخدمات الاستراتيجية يهمه أمرهم. إن أفراد المجموعة يتمتعون بذكاء حاد وكياسة وتهذيب ... إنهم يتوقون كثيرا إلى التحدث ويتوقون كثيرا إلى العمل".

كانت تلك فاتحة لمغازلات كثيرة بين "غرهارد فون منده" والاستخبارات الأمريكية ... مغازلات ستمتد عبر الخمسة عشر عاما اللاحقة. آنذاك، كان هدف الولايات المتحدة التحكم فى شبكة "فون منده" للاجئين. فمن وجهة النظر الأمريكية، يمكن أن يتم الاستعانة بأولئك اللاجئين فى عمليات لاختراق الاتحاد السوفييتى. هذا، وقد أرسل "فون منده" ورجاله إلى إحدى ضواحى "فرانكفورت" حيث قامت وحدة مكافحة التجسس التابعة لمكتب الخدمات الاستراتيجية بتناول الحالة. وكان "فون منده" يكتب – آنذاك – لأيام بلا انقطاع ... فقد قام هو والجورجيون الثلاثة بتحبير ثلاثة وعشرين تقريرا تناولت، فيما تناولته، آراء بشأن الأوضاع فى الاتحاد السوفييتى، ودور الأقليات هناك، وطرائق التلقين العقائدى للنازية، إلى جانب وصف تفصيلى لوزارات "برلين" المتعددة.

وقد استشعر مسئولو وحدة مكافحة التجسس انطباعا قويا لم يخل من بعض شكوك. إذ بدا "فون منده" رجلا شديد الطموح ... رجلا ذا "أجندة" خاصة به – أجندة عنوانها "مناهضة الشيوعية" مناهضة تصل إلى حد الهوس. على أن الأمريكيين قد شاطروه مناهضة الشيوعية، بيد أنهم كانوا يدركون أن "النازى" قد أخفق إخفاقا مدويا فى "الشرق". وقد زعم "فون منده" أنه مختلف، إذ وجه انتقادات إلى كبار رجال الأوستمنستريوم، إلا أن الداعمين الأمريكيين كانوا فى شك من ذلك مريب. فقد ذهب مسئولو "مكتب الخدمات الاستراتيجية" إلى وصف "فون منده" بأنه صلف متقلب المزاج يبلغ ١٧٣ سم طولا ويزن ٦٤ كيلو غرام، هزيل نحيل أشقر ذو عينين زرقاوين وبشرة بيضاء ... يحوى فكه السفلى سناً بارزة

ناتئة إلى الأمام على نحو ملحوظ ... كذا، فهو مهذب يوحي مظهره بكونه أصغر سنا من عمره الحقيقي ... متوقد الذكاء تبدو عليه مخايل القيادة وأماراتها.

وفي وصف آخر، صور "فون منده" على "أنه، بلا ريب، رجل ذو ذكاء خارق ولغوى محنك عالي الكعب ... يصعب وصفه بكونه يحافظ على أمانته ونزاهته إلى أقصى حد". وفيما لا يوجد شك فى إمكانية أن يعمل "فون منده" لمصلحة الأمريكيين، فإنه لا يوجد شك - بالمثل - فى إمكانية ألا يكون موضعا للثقة، إلا إذا ارتضى الأمريكيون بإغضاء الطرف عن أيديولوجيته ونهجه فى تناول قضية الاتحاد السوفييتى".

على أن القائمين باستجوابه قد صدقوا - أو على أقل تقدير كانوا يغضون الطرف عما قاله من أنه لم يكن قط "نازيا حقيقيا" ... إذ لم يقبل ألبتة أن يكون عضوا بكتيبة العاصفة، لذا فقد أطلق سراحه مع شهادة تثبت عدم التحاقه بأى حزب ذى صلة بالنازى أو أية منظمة سياسية لها صلة به ... شهادة تثبت أنه دائما ما كان يعارض سياسة "النازى" الخارجية. وعقب إطلاق سراحه، قفل "فون منده" ميمما بيته ليبدأ مرحلة جديدة من حياته كناشط استخباراتى "تحت الطلب".

"لدى زوجى رجال كانوا يعملون معه أثناء الحرب ... رجال خبراء فى كثير من قضايا أوروبا الشرقية. وتضم تلك المجموعة بعض الألمان، معظمهم ألمان ذوو إثنية بالطيقية" ... تلك الكلمات جاءت كمستهل خطاب مطول كتبته "كارولين اسبيزيت" فى تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٤٥ حكاية عن زوجها. إن الإنكليزية التى كتب بها الخطاب قد لا تكون متقنة تماما، إلا أن المعانى الواردة كانت غاية فى الوضوح: فغرهارد فون منده قد عمد إلى حشد الزعامات الألمانية-البالطقية القديمة التى عملت معه فى الأوستمنستريوم، تطلعا منه إلى سبل للعمل. وفى موضع لاحق

بالخطاب المذكور – الذى كتب باستخدام آلة كاتبة – كتبت "كارولين" أن العديد من اللاجئين بإمكانهم المساعدة، فالمجموعة يمكن أن تتقولب فى كيان للبحث العلمى. ووفقا لنص الخطاب، فإن "التعاون يمكن أن يتم بداخل معهد أكاديمى يكون فى حوزة الإمبراطورية البريطانية".

كان الخطاب واحدا من عدة خطابات كتبها كل من "فون منده" وزوجته بعد عودته من معسكر "الاستجواب" الأمريكى. وكان "فون منده" محظوظا إذ وجد عائلته فى أمان داخل القطاع "الغربى" المحتل. فحين انقضت الحرب، كانت العائلة تحيا فى الشمال من برلين فى مدينة هى موطن "هاينتس أونغلاوبه" – موظف الأوستمنستريوم المسئول عن الملف "التترى". إلا أنه حين توغل "الجيش الأحمر" داخل الأراضى الألمانية، أعد "فون منده" الترتيبات لارتحال العائلة غربا صوب الخطوط البريطانية.

وحين التأم شمل العائلة، كان على "فون منده" اتخاذ القرار بما عساه يفعل لإصابة الرزق. أما جامعة "برلين" فقد كانت فى قبضة السوفييت ... وأما الأوستمنستريوم فأضحى أثرا بعد عين، إلا أن "فون منده" كان شغوفا بالتعليم. ففى خطاباته، حذر "فون منده" مسئولى "الحلفاء" من أنه حين تُهجر "النازية" إثر سقوطها، سيضحى النشء الألمانى عرضة للأيديولوجية التى طبَّقت الآفاق ... الشيوعية. لذا، فقد اقترح ضربا من تعليم النشء والشبيبة يمكنه بالتعاون مع رجاله أن يديروا مشروعه ... بل لقد كتب خطابا إلى المؤرخ البريطانى الشهير "أرنولد توينبى" ملتمسا المساعدة ... إلا أن التماسه هذا قد ذهب أدراج الرياح.

لم تبد "الأكاديميا" سبيلا واعدا ... فقد أنجز "فون منده" بعض الأعمال – لفترة وجيزة – فى إحدى الجامعات بعد انقضاء الحرب مباشرة، إلا أنه لم يمنح منصبا

دائما بها ... ولكن، ما السبب؟! تبدو الإجابة محالة. آنذاك ... كان يتم الاستعانة بالكثير من ذوى الخلفيات "النازية" ... إلا أنه أيا ما كان الانطباع الذى تركه "فون منده" لدى مكتب الخدمات الاستراتيجية، فإن مشواره الوظيفى كان مرتبطا تماما بالنازى. فحتى قبل التحاقه بالعمل لدى الأوستمنستريوم، كان الرجل شديد التحمس للنازية، ليس بالمعنى الضيق فى كونه عضوا نظاميا بالحزب، بل بمعنى سعيه إلى التقيد ببرنامج الحزب وتبنى أيديولوجيته. هذا، وقد عمد "فون منده" إلى تسطير بعض الكتابات المعادية للسامية، كذا فقد شارك فى "الدجل" الأكاديمى حول تعريف "اليهودى الحق"!! أما عائلته، فقد ذكرت أنه كان شغوفا بالسياسة ... ولعل الأقرب إلى الدقة القول بأن نشاطه السياسى قد أدى إلى تقويض مستقبله الأكاديمى.

على أية حال، فسرعان ما اتصل "فون منده" اتصالا مباشرا بالبريطانيين ... إذ أرسل فى الحادى والثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٥ خطابا إلى لواء يحمل اسم "موريسون" عرض فيه شكايته بتعرض العاملين فى الأوستمنستريوم إلى تفرقة واضطهاد. وفى نهاية خطابه المطول ذى الصفحات الست، والذى أثنى فيه على زملائه السابقين واصفا إياهم "بالأوربيين الذين يقدحون أذهانهم ويعملون تفكيرهم" ... أرفق "فون منده" كنزا ثمينا أشبه بمنجم ذهب نفيس: لائحة بأفراد شبكته فى الأوستمنستريوم. وكانت تلك اللائحة تضم أسماء "ولى قيوم خان" و"ميخائيل الشيبايا"، وكثير آخرين، كان معظمهم ما يزال عالقا، آنذاك، فى معسكرات الحلفاء للاستجواب.

إن المعلومات التى وردت بخطاب "فون منده" لابد وأنها قد لاقت اهتماما كبيرا من قبل البريطانيين. فكثير من الرجال الذين أورد أسماءهم فى خطابه كانوا ينتمون إلى حركة "بروميثيوس" - جماعة اللاجئين التى عارضت السوفييت. وكان

البريطانيون قد ساورهم القلق، آنذاك، من أن يقوم السوفييت والنازيون بتشكيل تحالف فيما بينهم، إلى حد أن فكر البريطانيون فى إنزال بعض أفراد "بروميثيوس" مظليا فى الأراضى القوقازية لقصف المنشآت النفطية السوفييتية كيما يتم حرمان الألمان من البترول. وقد كان الإقليم،آنذاك، لا يزال يحظى بأهمية استراتيجية كبرى، أما "فون منده" فكان يعرف "اللاجئين" بأكثر كثيراً مما يعرفهم من عداه.

وبحلول عام ١٩٤٦، كان "فون منده" وعائلته يحيون فى رغد من العيش وبحبوحة. ففيما كان ألمان كثر يتضورون، كان الرجل يمتلك عربة، وكانت عائلته تملك جوادا وبيتا وخادمة ... كل ذلك من دون مصدر"رسمى" للدخل. أما فى بدايات عام ١٩٤٦، فكان "فون منده" قد عمد إلى نشر "عملياته" داخل القطاع "المحتل" من قبل الولايات المتحدة. فوفقا لتقرير أمريكى من تقارير مكافحة التجسس لعام ١٩٤٧، فقد يمم "فون منده" جنوبا قاصدا ميونيخ لزيارة الأمير الجورجى "ميخائيل الشيبايا"، زميله القديم فى الأوستمنستريوم – وكان ذلك، على الأرجح، لتجنيده للعمل لحساب البريطانيين. هذا، وقد اتجه "الشيبايا" شمالا قاصدا "هامبورغ" – في وقت لاحق من العام ذاته ليحضر معه أربعمائة "سيكارة" مستوردة، وثلاث زجاجات من "الكونياك"، وبعضا من الشوكولا، وثلاثة صناديق من "السيكار" ... وذلك لبيعها جميعا فى "السوق السوداء" لتغطية نمط إنفاقه "الترفى" وأسلوب معيشته الباذخ حيث امتلك سيارة وكان يخادن عشيقة.

أما فى نهاية الأربعينيات، فقد قررت وكالة الاستخبارات المركزية – المنشأة حديثا آنذاك – أن تجرى تقييما آخر لفون منده ... حيث أعطى اسما كوديا – "الماعزى" ... تلا ذلك أن استُدعى لميونيخ لإجراء محادثات مطولة معه. وقد عمدت الوكالة إلى أن تمنحه الجامعة فى ميونيخ وظيفة حيث أبدى "فون منده" توقا للعمل لحساب الوكالة الأكثر غنى والأوفر ثراء.

وفى غضون ذلك، كانت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا حريصتين على استخدام اللاجئين فى تنفيذ "عمليات مغطاة" لهما داخل الاتحاد السوفييتى. لقد كانت الحقبة ما تزال حقبة "الهجوم الاستباقى" ... تلك السياسة الأكثر مضاء من نقيضتها "الاحتوائية". فسياسة "الهجوم الاستباقى" تعلى من شأن المناورات والمغامرات، تلك التى على شاكلة العملية "تسيبلن" Zeppelin النازية الشهيرة فى عام ١٩٤٢، حين تم إنزال بعض اللاجئين التابعين لفون منده – مظليا – وبحوزتهم أجهزة "راديو" وخرائط، وذلك داخل أراضى الاتحاد السوفييتى ... وكانت مهمة أولئك النفر استكشاف الأراضى التى أهبطوا فيها، وتقدير إمكانية القيام بعمليات تخريبية أو اعتماد تنظيم سياسى. وفى بعض الأحايين، كللت تلك الغزوات بنجاح، إلا أنها قد آلت إلى عواقب كارثية وخيمة، حين كان يتم القبض على أولئك العملاء السريين حيثما يهبطون. إلا أنهم كانوا – من وجهة نظر وكالات استخبارات الحلفاء عند مطلع "الحرب الباردة" – يبدون كأنهم حل سريع للغياب شبه التام لأى عملاء للغرب داخل أراضى الاتحاد السوفييتى.

أما "فون منده"، فقد كان يدرك أن تلك الأنشطة غالبا ما تئول إلى فشل محقق. لذا، كان يفضل نهجا مغايرا: تجميع المعلومات والانخراط فى "العمليات المغطاة" ... أما الأمريكيون فلم يكونوا على القدر ذاته من الحماسة، لذا فقد تم تنحية الأمر جانبا ... إلى حين.

فى عام ١٩٤٩، تم تشكيل ألمانيا الغربية عن طريق دمج قطاعات ثلاثة كانت خاضعة للاحتلال الأمريكى والبريطانى والفرنسى فى أعقاب انقضاء الحرب الكونية الثانية. هذا، ولم تكن ألمانيا الغربية ذات سيادة تامة – إذ ظلت البلدان الثلاثة تنشر أعدادا كبيرة من قواتها فى أراضى ألمانيا الغربية، كذا فقد كانت سياستها الخارجية مطوقة تأتمر – فى الأساس – بأهداف الولايات المتحدة ومآربها. ومع

السعى البطىء المفضى إلى أن أضحت ألمانيا الغربية دولة "مستقلة"!!، إلا أن "فون منده" قد تمكن – على نحو بطىء – من تحرير نفسه من العمل لمصلحة "الأجانب" ... إذ شرع فى حشد وكالات ومكاتب بحكومة ألمانيا الغربية يمكن أن تجزل له العطاء كى تؤتى رؤيته أكلها ... تلك الرؤية التى تمثلت فى إحياء أكبر جانب ممكن من الأوستمنستريوم – بإعادة توظيف أولئك الزملاء القدامى ممن لم يستعن بهم الأمريكيون، وقيام الألمان بإعطائهم بعض أموال كفاء "مجهوداتهم". وبمضى الوقت، صار "فون منده" يتم توظيفه – مباشرة – من قبل ألمانيا الغربية.

ولربما كان "فون منده" مدفوعا بحافز إنسانى خيرى – توفير العمل لأجانب فقراء معوزين قد هاجروا بعيدا من ديارهم. إلا أنه وكما الحال دائما مع "فون منده"، فإن "خيريته"!! لا يمكن فصلها عن طموحاته، بل وانتهازيته. لقد كان الرجل يحب الأقليات السوفييتية التى بادلته حبا بحب – كذا. فقد كان الطرفان يتشاطران الحاجة إلى بعضهما البعض. وبمثل ما كان فى الأوستمنستريوم من قبل، أضحى "فون منده " إما نصيرهم المنافح عنهم الذاب عن مصالحهم، وإما كونه اعتبرهم "دمى" جعلها ألعوبة، كعرائس الماريونيت، تحركها يداه أنى شاء. هذا، ويرتكن ما سبق إلى منظور تقييم "فون منده" من جهة الخيرية. أما زملاؤه القدامى فى الأوستمنستريوم، فقد امتدحوه وأثنوا على استخدامه لنفوذه لمد يد العون إلى من كان محتاجا إليها. وقد كتب "فون منده" سلسلة مما تعارف الألمان على تسميته "مستندات برزيل" Persilschein، و"برزيل" هو منظف الملابس الألمانى الأكثر شهرة: إذا ... فخطاب يرد من "الشخص المناسب" حقيق به أن يمحو أية "بقع" نازية، وإن استعصت. كذا، فقد ساعد "فون منده" أفراد الأقليات السوفييتية فى الحصول على فرص تعليمية. وقد قام بالتدريس لغريب سلطان الذى كان يدرس الحقوق – أنذاك – فى جامعة "هامبورغ". "لقد مد فون منده يد العون إلى الكثير من أفراد اللجان

القومية" ... وهو ما أورده "سلطان" مستطردا: "نحن مدينون له بالفضل وممتنون كثيراً لأياديه البيضاء علينا".

بعد التحاق "غريب سلطان" بأمكومليب، ارتكن "فون منده" بشدة إلى اثنين من اللاجئين: "باى ميرزا هاييت" و"ولى قيوم خان". أما "هاييت"، فكان همزة الوصل فيما بين اللجان القومية بالأوستمنستريوم وبين الجيش الألمانى ... متسلحا فى ذلك بحسن الأحدوثة عن كونه رجلا مستقيما وعسكريا منضبطا. فبعد انقضاء الحرب الكونية الثانية، أضحى "هاييت" أهم زملاء "فون منده"، حيث استعان به "فون منده" لجمع بيانات عن اللاجئين، فضلا عن كتابة بعض النشرات. كذا، فسيرسله "فون منده" – لاحقا – إلى خارج البلاد فى "عمليات مخطاة". هذا، وقد تقاسم كلا الرجلين أواصر صداقة حميمة.

وفى خطاب بتاريخ الرابع والعشرين من شباط/ فبراير ١٩٥٧، كتب "هاييت" إلى "فون منده": "لولا وجودك ... لكان مقامى فى ألمانيا ليشبه جزيرة فى بحر ميت"، ورد ذلك حين كان "هاييت" فى رحلة إلى العاصمة البريطانية لندن. إن خطابات "هاييت" ومكاتباته، والتى غالبا ما كانت لتستعصى على القراءة لرداءة الخط الذى كتبت به ... ذلك الذى كان ينساب على هيئة موجات على امتداد الخطاب أو غيره – كانت حافلة – على الدوام – بأسئلة سطحية تافهة عن "صحة فون منده وزوجته وأولاده. ورغما عن أن "فون منده" لم يكن، أبدا، حنونا أو رفيقا شفوقا بمثل ما كان "هاييت" ... إلا أن جهوده الدوبة فيما يتعلق بهاييت تبدو واضحة جلية. وعلى الرغم من سنوات طوال أمضاها "هاييت" فى ألمانيا، إلا أن "ألمانيته" كانت ركيكة على الدوام، وكان "فون منده" هو الذى يكتب له الأوراق، بل وحتى مذكراته الخاصة وخاطراته ... وبذا يحول نثر "هاييت" الجاف العسر إلى أبدع "المكاتبات الديوانية" وأسلسها، أو "النثر الأكاديمى المحافظ".

كان "هاييت" دائم الشغف بالتاريخ مولعا به ... وقد عاونه "فون منده" – في أعقاب انقضاء الحرب – في الحصول على درجة الدكتوراه من جامعة "مونستر"، وكتابة عدة كتب عن تاريخ "تركستان". وفي عام ١٩٥٦، أصدر "هاييت" كتابه "تركستان في القرن العشرين"، والذي كتبت عنه مراجعات في "الدوريات الأكاديمية" حيث اعتبر رؤية هامة، وإن ظلت غير موضوعية، لصراعات الإقليم ضد روسيا. وعلى امتداد سني حياته، واصل "هاييت" إصداره لكتب تناولت "تركستان" بغزارة.

في أثناء الحرب الكونية الثانية، وكذا بعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها – لم يكن "ولي قيوم خان" على القدر ذاته من الجاذبية. ففي أعقاب الحرب، قام الرجل بإعادة بناء لجنته القومية بالأوستمنستريوم، حيث أطلق عليها اسم "لجنة الوحدة القومية التركستانية"، ليلتحق بها معظم الرجال البارزين من "آسيا الوسطى" ممن كانوا يعملون لحساب "فون منده". إلا أن ماضي "ولي قيوم" النازي قد لطخ سمعته. ففي عام ١٩٥١، نشرت مجلة New Leader الأمريكية ذات الاتجاه اليساري مقالة من جزءين تحت عنوان "حلفاء لا نريدهم"، والتي أبرزت بدقة كيف أن اللاجئين الذين سبق لهم التعاون مع النازي – يترأسون مجموعات مدعومة من قبل الحلفاء السابقين. أما الجزء الأول، بتاريخ الثالث من أيلول/ سبتمبر ١٩٥١، فقد عمد إلى نقد "التحالف القومي للتضامنيين الروس" لتحالفه مع الأوستمنستريوم وترويجه لمعاداة السامية[٣٨]. أما الجزء الثاني، بتاريخ العاشر من الشهر ذاته، فقد كان تحديا مباشرا وصريحا لمكايد وكالات الاستخبارات الغربية وحيلها في ألمانيا الغربية ... كذا، فقد أُدرجت، في ذلك الجزء من المقالة – صورة لألفريد روزنبرغ – رئيس الأوستمنستريوم، مصحوبة بتعليق يقول: "إن ذكراه لباقية"، فضلا عن تحليل لكتلة الأمم المناهضة للشيوعية. هذا، وقد نددت "المقالة" بكتلة الأمم المناهضة للشيوعية

لتصريحاتها العنصرية المعادية لما هو روسى (فوفقا لإحدى الأوراق الصادرة عن "الكتلة"، فإن الروس لم يكن بمقدورهم أبدا تشكيل ضرب مجتمعى جدير بأن يضم آدميين)، بالإضافة إلى تفريغ أذناب الأوستمنستريوم ... الذين عملوا به فى السابق، ثم التحقوا بتلك "الكتلة"، ومنهم "ولى قيوم خان" – نائب الرئيس، و"فلاديمير غلاسكوف" – مبتكر "أمة القوزاق"، وعميل العديد من أجهزة الاستخبارات، و"عبد الرحمن فاتالبايلى" – الرفيق الحميم للشيخ أمين الحسينى. وعقب صدور المقالة، أرسل "فون منده" – من فوره – خطابا فى التاسع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥١ إلى "ياروسلاف ستيتسكو" – رئيس "كتلة الأمم المناهضة للشيوعية"، والذى شغل منصب رئيس وزراء أوكرانيا فى السابق – سائلا إياه ما إذا كان يرى وجوب قيام "ولى قيوم" بالرد. كذا، فقد وبخ "فون منده" الكتلة لاستخدامها "لهجة ملتهبة"، إذ ذهب إلى ضرورة "أن تكون مجلة New Leader قد تحصلت على معلومات كتلك بواسطة "فرد" قد عمل لمصلحة الاستخبارات الأمريكية". على أن هذا الزعم يمكن للمرء أن يصدقه نظرا لأن أمكومليب من جهة، و"فون منده" من جهة أخرى كانا يتنافسان لاستقطاب الرجال أنفسهم، وذلك لتعيينهم فى مناصب فى الأوستمنستريوم بعد إحيائه من جديد.

هذا، وقد كان "فون منده" يغضب كثيرا من "ولى قيوم خان" بسبب حماقاته وسلوكه الأرعن، وكذا بسبب نهمه للمال ... ذلك النهم الذى لا يشبع أبدا ... ومع ذلك، فقد ظل وفيا للعهد معه، وكان يمنحه ٣,٦٠٠ مارك ألمانى كراتب سنوى. أما المهمة الوحيدة التى كان "ولى قيوم" مكلفا بها، فكانت إرسال بعض من شذرات للنميمة عن اللاجئين إلى "فون منده". فإذا ما تناولنا المستندات والوثائق التى كانت ما تزال محفوظة بمكاتب "فون منده"، لوجدنا أن "ولى قيوم" لم يكتب قط أية تقارير جدية ولا أية تحليلات مسئولة رصينة. علاوة على ذلك، سعى "فون منده" لتقديم

العون المالى لصحيفة "ولى قيوم" - والمسماة "مللى تركستان"، أى تركستان الوطن ... كفاء خدماته السابقة لألمانيا. وهنا يجد المرء نفسه مدفوعا إلى افتراض أن ذلك يحيل إلى عمله مع الأوستمنستريوم.

أما من توج فريق "فون منده"، فكان ألمانيا يدعى "فالتر شينك"، والذى عمل نائبا لفون منده. على أن "شينك" لم يعمل فى الأوستمنستريوم، بل تعرف "فون منده" إليه أثناء الحرب الكونية الثانية، حين كان "شينك" يترأس مكتب الأمن النازى فى "ليمبرغ"، حيث كان الديسك IIIB واحدا من مهامه ومسئولياته ... ذلك الديسك الذى أشرف على البولنديين والأوكرانيين واليهود. أما "ليمبرغ" (والتى عرفت فيما بين الحربين الكونيتين باسمها البولندى "لفوف"، وتعرف اليوم باسمها الأوكرانى "لفيف"[٣٩])، فكانت - آنذاك - واقعة شرقى بولندا، بما يعنى أن "فالتر شينك" كان فى بؤرة "الهولوكوست". لقد ترك "شينك" الجامعة للانضمام إلى صفوف النازى ... الأمر الذى جعل الطلب عليه لتوظيفه أقل من الطلب على "فون منده"، وذلك بعد انقضاء الحرب. وقد أمضى "شينك" أوقاتا طويلة فى مساعدة "فون منده" كى يصمم منظمته "البازغة".

وكما كان ديدن نظرائه فى أمكومليب، كان "فون منده" يغير اسم مكتبه على نحو مستمر إلى أن توصل إلى اسم ملائم. وفى النهاية، خلص "فون منده" إلى اسم "مزدوج": "مكتب الخدمات البحثية لأوروبا الشرقية"، و"مكتب الأجانب بلا وطن". هذا، وقد زعم الرجل أن مكتب "الأجانب بلا وطن" هو لمساعدة "أولئك ممن لا وطن لهم"!! إذ يواجهون مشاكل عديدة. أما "مكتب الخدمات البحثية لأوروبا الشرقية"، فكان مركز أبحاث شبه أكاديمى للوكالات الحكومية، والتى تكون بحاجة إلى معلومات وبيانات. وفى محاولته لتوطيد أركانه وترسيخ أقدامه، عمد "فون منده" إلى التنقل فى المناطق الريفية والعمل فى مدن صغيرة فى القطاع البريطانى من

ألمانيا: "ديتمولد"[٤٠]، و"أولتسن"[٤١]، و"براكفيده"[٤٢] ... ثم استقر به المقام فى "دوسلدورف"، والتى أصبحت مركزا لجهود "ألمانيا الغربية" بشأن استخدام "الأقليات السوفييتية"، وجهودها – فى وقت لاحق – فى استخدام "الإسلام".

لقد كانت "دوسلدورف" – تلك المدينة الساحرة على نهر "الراين" – قاطرة النمو الاقتصادى لألمانيا الغربية. وتقع المدينة بولاية شمال الراين/ فستفاليا بالقرب من مدينة "كولونيا". وقد ذاع صيت "دوسلدورف"، تلك المدينة القديمة، وازدادت شهرتها حين أضحى وادى "الرور" المتاخم، خلال القرن التاسع عشر، مركز التصنيع فى القارة الأوروبية حيث المناجم التى تكسوها العوادم، وحيث مدائن التعدين. وكانت "دوسلدورف" المدخل لوادى الرور ... "دوسلدورف"، مركز المصارف ومهوى الأناقة وبؤرة التجارة.

وكان مكتب "فون منده" مكتبا كبيرا يقع قبالة نهر الراين ... الذى لا يشبه –فى هذا الموقع– منبعه الذى يقصده السائحون، ذلك المنبع الذى تصطف على ضفتيه مبان أشبه بقلاع القرون الوسطى، وتتناثر حوله قرى صغيرة بحدائق ذات بهجة. أما هنا ... فالنهر منبسط وعميق ... مجرى مائى تجارى غاص ببوارج عملاقة ومراكب لنقل البضاعة، فضلا عن مراكب صغيرة تذرع الطريق إلى "الرور" جيئة وذهابا ... وقد حجب "فون منده" عن الأنظار مَرسى نهر كبير اصطفت على جانبيه بعض أشجار الكستناء. ومن نافذته، يستطيع "فون منده" رؤية الأشجار ومضمار للخيل يقع خلفه حقل شاسع ترصعه أشجار "الزيزفون" وبعض شجيرات تصل إلى مشارف النهر.

أما مكاتب "فون منده"، فكانت ممولة من قبل العديد من وكالات التمويل بألمانيا الغربية، والتى انصب اهتمام حكومتها على رعاية نحو ٢٢٠٠٠٠ أجنبى بلا مأوى

خلفوا داخل البلاد جراء الحرب الكونية الثانية. وفى البدء، تدفقت الأموال من "المكتب الاتحادى لحماية الدستور"، وهو "جهاز أمن الدولة" فى ألمانيا الغربية ... إذ كان الهدف تتبع "المتطرفين". ثم تلا ذلك، قيام المكتب الاتحادى ببافاريا بمنح "فون منده" خمسة آلاف مارك ألمانى شهريا لكى يكون "عينها" فى مراقبة اللاجئين فى ميونيخ، فأطلقت على مكاتبه لفظة "مكاتبنا الشمالية" ... تلك المكاتب التى أسند إليها تقدير حجم اللاجئين بميونيخ. كذا، فقد أسهمت وزارة الخارجية الألمانية فى دعمه بالأموال، وقام هو بالتعاون الوثيق مع وزارة اللاجئين بألمانيا الغربية. وكان مكتب "فون منده" الاستخباراتى يقع فى الطابق الأرضى، فيما قطنت عائلته فى "شقة" رحيبة بالطابق الذى يعلوه، وهو ما أتاح له بعض الوقت تمكن خلاله من رؤية عائلته ... أما زوجته "كارولين اسبيزيت"، فقد أتاح لها هذا الوضع أن تمد يد العون فيما يخص شئون المكتب المختلفة.

وبمثل ما كانت الحال سلفا، عمدت "كارولين" إلى مساعدة زوجها فى كتابة خطابات بالإنكليزية ... الإنكليزية، تلك اللغة وذلك اللسان الذى صار له ذيوع عالمى. فبالرغم من إلمامه بلغات مختلفة، لم يستشعر "فون منده" الثقة فى "إنكليزيته" فاعتمد على زوجته للتواصل مع العالم الخارجى. ويا لها من مصادفة ... تلك الخاصة بفون منده، ذلك اللغوى الموهوب والألسنى الفذ، والمتمثلة فى أن تطوره الثقافى كان وكأنه قد توقف حين التحق بالنازى. وفيما يخص العديد من زائريه، فإن قصور "فون منده" اللغوى لم يكن مشكلة على الإطلاق ... وكان من بين زائريه المتواترين مسئولون من أمكومليب يتقنون الألمانية ويتحدثونها بطلاقة. وكان أحد تلكم اللقاءات قد عقد فى أيار/ مايو ١٩٥٤ حين كان "إسحاق باتش" – المنسق السياسى لأمكومليب – يتحرق لحل مشكلة الأقليات المنطوية نفوسهم على الضغينة ... وقد حضر اللقاء، أيضا، "روبرت فرانسيس كيللى" – وهو دبلوماسى أمريكى

متقاعد اضطلع بعمليات "أمكومليب" فى ميونيخ كمحطة أخيرة لقطار مشواره الوظيفي، فضلا عن حضور الدكتور "ويليام باليس" - أستاذ العلوم السياسية والملحق العسكرى البحرى فى السفارة الأمريكية فى موسكو خلال الحرب الكونية الثانية، ومدير "معهد دراسات الاتحاد السوفييتى" ... ذلك المعهد الذى يعد إحدى جبهات "أمكومليب" في ميونيخ.

لقد قام "باتش" و"كيللى" بإخبار "فون منده" عن خيبة أملهما لعجزهما عن بناء جبهة موحدة تضم كلا من "الروس"، و"غير الروس". ففى توثيقه للقاء، أدرج "فون منده" تعقيبا ذكر فيه أنه "كان يعلم بأمر تلك المشاكل مسبقا بفضل أحد الرجال الثقاة فى ميونيخ - رجل من "معهد دراسات الاتحاد السوفييتى" يرسل التقارير إليه.

أما "باتش"، فقد سأل "فون منده" النصيحة، فكان رده أن "راديو الحرية" يجب أن يكون أكثر فاعلية وأمضى أثرا. واستطرد "فون منده" قائلا إن "الراديو" به "ديسكات" يمثل كل واحد منها إحدى "القوميات" الرئيسية. كذا، فقد كانت تقع على "الديسكات" مسئولية البث بهذة اللغة "القومية" أو تلك، فضلا عن اضطلاعها بدور سياسي. فبمثل ما كانت "اللجان القومية" للأوستمنستريوم، كانت خدمات بث "راديو الحرية" تعمل كأشباه حكومات فى المنفى - إذ كان هيكل العمالة بالراديو يكاد يتطابق وهيكل عمالة الأوستمنستريوم ... وأردف "فون منده" أن ذلك أمر حسن، إلا أنه يتعين أن يكون العاملون أكثر فاعلية وأمضى أثرا، ليس فى كيفية إدارتهم للراديو، بل فيما يخص "العمل السياسي". ووفقا لما أورده "فون منده"، فقد وافق روبرت كيللى "لإيمانه بأنه من الضرورى إرساء قاعدة سياسية للراديو، وكذلك الأمر فيما يخص المعهد".

وكان المحك، وفقا لفون منده، هو حسن انتقاء المرشحين للعمل بالديسكات، والنهوض بمستوى العاملين القائمين، إذ يتعين أن يكون التواصل بينهم وبين جماعات اللاجئين على امتداد العالم تواصلا جيدا مثمرا. وفي إشارة منه إلى "الديسك الأذربيجاني" حين كان يترأسه كل من "إسماعيل أكبر"، و"مجيد موسى زادة"، و"عبد الرحمن فاتالبايلي" ... أقر "فون منده" مصادقا بأن الديسك له نفوذ سياسي بعينه، بيد أن الأمر بحاجة إلى مزيد من الدعم والتعضيد. وكان "فون منده" يعلم أن "إسماعيل أكبر" قد قام بالتخطيط لرحلة إلى تركيا، فاقترح أن تقوم "أمكومليب" بتمويلها كيما يتمكن من تدعيم الديسك وتعضيد قوته عن طريق جلب بعض اللاجئين الأذربيجانيين ممن يحيون في تركيا ... وقد لقى هذا الأمر موافقة "إسحاق باتش" وقبوله.

أما "فون منده"، فقد أسدى نصيحة إلى الدكتور "ويليام باليس" – مدير "معهد دراسات الاتحاد السوفييتي" ... الذي قام بالاستعانة بالدكتور "إيديك مصطفى كيريمال" لكتابة تقرير عن "تتر القرم" أثناء الحرب الكونية الثانية. إذ أشار "فون منده" بسخرية مريرة إلى أن "كيريمال" قد كتب بالفعل تقريرا كذلك المطلوب، وذلك للبريطانيين ... لذا، نصح "باليس" قائلا: "إن بوسع الأمريكيين عدم تبديد أموالهم، إذا استعانوا بي في إدارة مشروعات كتلك"، في إشارة ضمنية منه إلى معرفته بما قامت الاستخبارات البريطانية بدفعه. كذا، فقد أخبره "فون منده" باستعداده لإعطائه نسخا من التقارير بما يحول دون أن يتكبد المعهد نفقات الحصول على نسخ جديدة. وكان ذلك، بالطبع، مسلكا يسيرا لكي يعرف "فون منده" ما كانت وكالة الاستخبارات المركزية تعتزم القيام به.

وبعد مضى عام، وتحديدا في التاسع من شباط/ فبراير ١٩٥٥، أقام "إسحاق باتش" حفل عشاء كبيراً في بيته بميونيخ ... حيث لم تكن جهوده لتوحيد "الروس"

و"غير الروس" – آنذاك – قد برحت مكانها بعد. أما حفل العشاء، فقد أراده "باتش" طقسا اجتماعيا ... إذ قام هو وزوجته بدعوة "فون منده" وزوجته "كارولين" إليه، إلى جانب دعوة القنصل الأمريكى "إيدوين الآن لايبتز" وزوجته "دوروثى بويس"، فضلا عن مسئول آخر بالقنصلية الأمريكية وزوجته. إلا أن "فون منده" لم يكن راغبا – ليلتها – فى التسامر مع آخرين، بل كان يرغب فى الحديث عن كيفية استخدام اللاجئين على نحو أكثر كفاءة وفاعلية.

فالأحجية الكبرى، كما ذهب "فون منده"، تكمن فى أنه ما لم يتم استيعاب اللاجئين، فلن يتمكن هؤلاء من العثور على فرص للعمل، ومن ثم سينتهى بهم المطاف غرباء دائمين داخل المجتمع الألمانى، ولكن إذا ما تم دمج أولئك اللاجئين داخل ثنايا نسيج الثقافة المحلية، فلن تكون لهم – ساعتها – أدنى فائدة للبلدان الغربية التى يجب أن تصورهم دعاياتها المناهضة للشيوعية على كونهم لاجئين يعانون، لا على كونهم مهاجرين مستوعبين. هذا، وقد كان "فون منده" قلقا من أن "يؤدى الإخفاق فى تناول قضايا اللاجئين إلى تثبيط الروح المعنوية لدى اللاجئين وإثناء عزائمهم، وكذا الإضرار بجهود الحرب السيكولوجية الغربية"، وذلك ما ذهب إليه "إيدوين لايبتز" فى سرده لوقائع اللقاء. أما النقطة الرئيسية، وفقا لفون منده، فكانت دعم الأقليات السوفييتية، وإغضاء الطرف عن الروس. أما "إسحاق باتش"، والذى أمضى عامين كاملين فى محاولة توحيد هذين الفصيلين ... فلم ترد إلى خاطره فكره تهميش الروس أو استبعادهم. على أن "فون منده" قد ذهب إلى تبنى وجهة النظر القديمة للأوستمنستريوم ومفادها: بما أن الأقليات هى "كعب أخيل" السوفييت ... لذا، فإن كانت الولايات المتحدة الأمريكية تريد تقويض أركان الاتحاد السوفييتى ونقض دعائمه، فعليها استخدام تلك "الأقليات" على نحو أكثر فاعلية.

إلا أن "فون منده" قد واجهته مشكلة حين أراد أن يقنع الأمريكيين بتبنى

نصيحته ... إذ كان يتعامل مع محبي كل ما هو روسي. فكيللي ورجاله قد تناولوا المشكلة على أنهم ناطقون بلسان "الروس"، ذوو خبرة طويلة وافتتان بهذا البلد. أجل ... هم يعلمون، تحقيقا، أن الاتحاد السوفييتي مكون من أقليات عدة، إلا أنهم - وفي قرارة أنفسهم - لا يريدون أن يستبعدوا الروس. على أن آخرين، من "أمكومليب"، كانوا يتبنون موقف "فون مندة" ووجهة نظره، إذ رأوا الأقليات السوفييتية - وبخاصة المسلمون - أسلحة هامة في مهاجمة الاتحاد السوفييتي. فلم يكن المحك مجرد استخدامهم للسيطرة على مسلميه، بل على المسلمين في أنحاء العالم قاطبة.